



منتقى التفاسير

في تفسير سورة البقرة

تفسير الآيات من (135 - 152)

تأمل

أبو عمر

د/ محمد عبد المعطي محمد

# مقدمة

بسم الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد...

ما زلت أرددُ أن طريقة تناولنا للقرآن عقيمةٌ جدا في أغلب الأحيان مما أدى إلى فقدان النص القرآني دوره الفاعل في ضبط حياة البشرية وبناء الدولة المؤمنة.

(فإن المنهج القرآني لا يقدِّم العقيدة في صورةٍ «نظرية» للدراسة. فهذا مجرد عِلمٍ لا ينشىء في عالم الضمير ولا في عالم الحياة شيئاً. إنه علمٌ باردٌ لا يعصم من الهوى، ولا يرفع من ثِقل الشهوات شيئاً، ولا يدفع الشيطان؛ بل ربما ذلَّل له الطريق وعبَّدها!

كذلك المنهج القرآني لا يقدِّم هذا الدين دراساتٍ في «النظام الإسلامي»، ولا في «الفقه الإسلامي»، ولا في «الاقتصاد الإسلامي»، ولا في «العلوم الكونية»، ولا في «العلوم النفسية»، ولا في أية صورة من صور الدراسة المعرفية!

إنما يقدِّم هذا الدين عقيدةً دافعة دافقة موقظة رافعةً مستعليةً تدفع إلى الحركة لتحقيق مدلولها العملي فور استقرارها في القلب والعقل، وتحيي موات القلب؛ فينبض ويتحرك.

يقدمه عقيدةً توقظ أَجهزة الاستقبال والاستجابة في الفطرة، فترجع إلى عهد الله الأول، وترفع الاهتمامات والغايات؛ فلا تثقلها جاذبية الطين، ولا تخلد إلى الأرض أبداً.

ويقدمه منهجاً للنظر والتدبر يتميز ويتفرد دون مناهج البشر في النظر؛ لأنه إنما جاء لينقذ البشر من قصور مناهجهم وأخطائها وانحرافها تحت لعب الأهواء، وثقلة الأبدان، وإغواء الشيطان!

ويقدمه ميزاناً للحق تنضبط به عقول الناس ومداركهم، وتُقاس به، وتُوزن اتجاهاتهم وحركاتهم وتصوراتهم؛ فما قبله منها هذا الميزان كان صحيحاً لتمضي فيه وما رفضه هذا الميزان كان خاطئاً يجب الإقلاع عنه.

يقدم هذا الدين منهجاً للحركة يقود البشرية خطوةً خطوةً في الطريق الصاعد إلى القمة السامقة وِفق خطاه ووفق تقديراته.

وفي أثناء الحركة الواقعية يصوغ للناس نظام حياتهم، وأصول شريعتهم، وقواعد اقتصادهم واجتماعهم وسياستهم.

ثم يصوغ الناس بعقولهم المنضبطة به تشريعاتهم القانونية الفقهية، وعلومهم الكونية والنفسية، وسائر ما تتطلبه حياتهم العملية الواقعية.

يصوغونها؛ وفي نفوسهم حرارة العقيدة ودفعتها، وجدية الشريعة وواقعيتها، واحتياجات الحياة الواقعية وتوجيهاتها.

هذا هو المنهج القرآني في صياغة النفوس المسلمة والحياة الإسلامية.

أما الدراسة النظرية لمجرد الدراسة، فهذا هو العلم الذي لا يعصم من ثِقلة الأرض ودفعة الهوى وإغواء الشيطان ولا يقدم للحياة البشرية خيراً! )([[1]](#footnote-1)).

\*\*\*\*\*

كان هذا مدخلا سريعا لما سعيتُ إليه منذ البداية في قراءتي المتأنية لكثيرٍ من كتب التفسير، ومعايشتي لكثير من مناهج المفسرين وطرقهم في الفحص عن معاني كتاب الله تعالى.

ولا أبالغ حين أذكر أنني سبحتُ في سماواتٍ بلا حدود جرَّاءَ سياحتي في تدبر وفهم كتاب الله تعالى من خلال أنظار علماءٍ أفذاذ وضعوا خلاصة علومهم وعصارة حياتهم العلمية في خدمة الكتاب العزيز ولكن بقي في نفسي من ذلك أمور: -

أولها: كيف أستطيع أن أنقل لإخواني المسلمين الباحثين عن النور بعضا من سعادتي وانبهاري بهذا الفردوس الأرضي في معايشة كتاب الله.

ثانيها: كيف لي أن أتصيد بعض ملاحظاتي في ترحالي في كتب معاني القرآن وعلومه وتفاسيره لتكون عونا لي على سرعة استجلابها في زحام الحياة النكد.

من هنا بدأت معركتي مع الأوراق والحروف لتمر بمراحلِ المكابدة في القراءة والتحليل والاختصار والتهذيب والتقريب والتجميع ثم الصياغة وإعادة القراءة والمراجعة….

والحقيقةُ أنَّ مجرد النقل والرصفِ لا يساوي الكثير، وإنما الكثيرُ والشاقُ هو في رؤية المعاني الكامنة من وراء الآيات تدبراً وتفكراً ثم تهذيب التراث التفسيري من أجل نقل هذه المعاني صادحةً في نَسَقٍ متصلٍ كأنها عقدٌ منضود.

كل ذلك مع محاولة نقل المتعة الحقيقية في بلاغة القرآن من خلال درسٍ تحليليٍ يغوص في لغة القرآن-مستعينا بالله تعالى-ليأتي بالدُرر الغوالي.

وأؤكد أن نقلي من هذا أو ذاك لا يعني أبداً الاتفاق معه في منهجه على عمومه، وإنما الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق الناس بها، كما في القول المشهور.

وكل ذلك لأن فهم كتاب الله تعالى ليس بالأمر الهين، وطريقه ليس بالطريق السهل (على تيسير الله –سبحانه-لمن يشاء).

فبالحديث عن تعدد الزوايا التي يمكن منها تناول القرآن العزيز، وعن سعيي الدؤوب لفهمٍ شموليٍ يجمع روح الدين، ومقاصده الأصيلة جنبا إلى جنبٍ مع دقة الأسلوب القرآني، وعظمته، وبلاغته، وكافة وجوه إعجازه ليتمثل في ذلك الفهم والإدراك الواعي للمعجزة التي تحرس المنهج، والمنهج الذي يؤكد المعجزة القرآنية... بالحديث عن ذلك كله نتبين أنها مهمةٌ صعبةٌ جدا، فلا يكفي أن تغوص في كتب التراث وكتب المعاصرين في تفسير القرآن وفهمه لتجمع شتاتاً تضم بعضها إلى بعضٍ؛ حتى يكون لك فيما تقرأ وتجمع في قلبك ووجدانك تدبرٌ يصبُّ في المعاني الكبرى لهدايات هذا الدين العظيم.

وسوف تجد-أيها القارئ الكريم-بتوفيق الله – تعالى-في هذا المشروع فوائدَ وشواردَ جمعتْ مني دهراً وفكراً أتأملها في كتب العلماء في علومٍ شتى من علوم الشريعة ومكملاتها؛ حتى إنني أردت أن انقل هذا العالم الواسع اليانع من الاستمتاع في رحاب لغة القرآن ودلالاته وهداياته لطلاب العلم ومحبي القرآن عسى أن يكون لبنة في تدبرٍ عميقٍ لكتاب الله تعالى.

والأمْرُ أنني استعنتُ اللهَ-سبحانه-وتجشَّمت لعملٍ عظيمٍ -وأنا الصغير الضئيل-ولكنَّ الله تعالى المتفضل بالجميل أعان ويسّر، وأوقف لي -سبحانه-ظهيرا من أساتذتي الكرام في موقع شبكة " الألوكة المباركة" يراجعون وينقِّحون ما جمعتُ فلهم مني الشكر والتقدير، وصدق الرسول العظيم إذ علمنا أنه " لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس". ([[2]](#footnote-2))

فقد صدرت على صفحات موقعهم الالكتروني المبارك أربعة أجزاءٍ من مشروعي هذا.

وهذا هو الجزء الخامس من " منتقى التفاسير" في تدبر سورة البقرة.

من سلسلة "تدبر معاني وبلاغة القرآن الكريم"

ولله وحده الفضل أولا وآخرا...

نسأله تعالى أن يعيننا على إتمام ما بدأناه، وأن يجعله زخرا لنا يوم المعاد، وأن يغفر لنا زلاتنا، ولا يجعلنا فتنةً لغيرنا، وأنْ يسدد خطانا، إنه كريمٌ حليم.

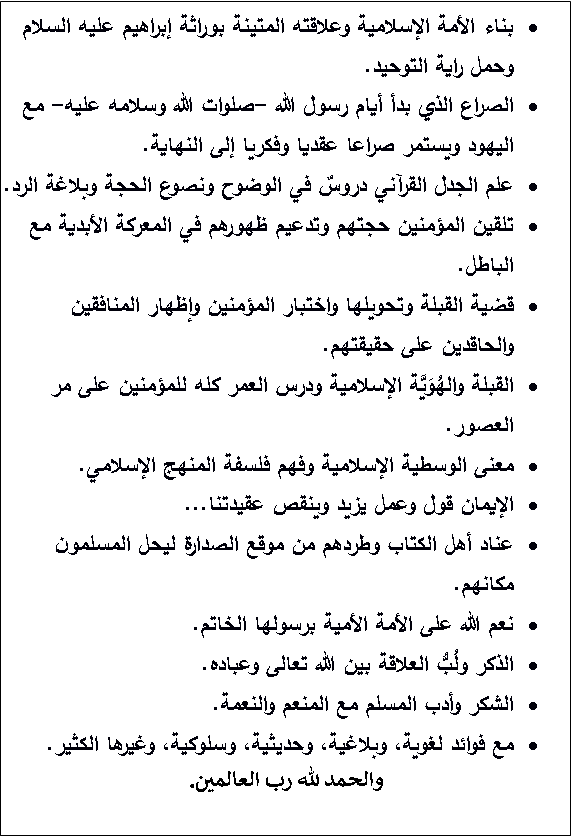
والحمد لله رب العالمين رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين

كتبه الفقير إلى رضا ربه أبو عمر د/ محمد عبد المعطي.

# 

## في هذا السفر نطالع.



# تفسير الآيات من الآية ( 135-141)

{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)} [البقرة: 135-141]

في الواقع لا تفاجأنا الآيات كثيرا بتقرير تلك الحقائق الساطعة إلا بمقدار ما تفاجأنا غفلتنا السخيفة عن هذه العلاقة المتوترة في صميمها بين دعاة الحق ودعاة الباطل؛ ولكل جانب من الجانبين دعاةٌ، وإنْ كان دعاة الباطل أكثر سطوةً بدعوتهم؛ إما لضعفٍ في إيمان أهل الحق بالذي معهم أو لضعفٍ في منافحتهم عنه، أو حتى لضعفٍ بصيرةٍ في الدعوة إلى الحق. ([[3]](#footnote-3))

هذا الجدال والحوار (المزعوم والمحموم) بين الأديان الذي مهَّدت له الآيات. فإن كلَّ أهل ملةٍ أو مذهبٍ يدافعون عن ملتهم ومذهبهم ويرون أنه الحق الذي وراءه الباطل؛ بل يدعون إلى ملتهم بجِد ودَأَب. وأين أهل الإسلام والسنة من كل ذلك؟ إنهم-بصورةٍ كبيرةٍ-مخدَّرون بالشعارات الزائفة (للحوار بين الأديان)، وتطير عقول وألسنة المُغيَّبين أو العملاء تدعو إلى الحوار والتقارب المزعوم. ولا سبيل إلى إفاقتهم إلا عودتهم لتدبر كلام الله تعالى، وقراءة تاريخ هذه الدعوة قراءةً متأنيةً صحيحة.

إن الأمر –في الحقيقة-كما اعترف به أحد اللاهوتيين النصارى بقوله: «إن هذا الحوار عبارة عن عملية مُغَلَّفةٍ بالذهب وعصريةٍ لحبةٍ قديمةٍ كانوا يفرضونها قهرًا على الشعوب فيما مضى». ([[4]](#footnote-4))

فالأمر-إذن-إلا (التنصير أو التهويد) التي يريد أن يمحو به اليهود والنصارى دين الله الحق من على وجه البسيطة بكل السبل؛ بدايةً من تهيئة العقول الضعيفة بدعوتهم وبذل الأموال الطائلة في ذلك حتى الحرب والإبادة، وحتى الصمت المتعمد والضوء الأخضر لإبادة المسلمين؛ وخصوصا أهل السنة.

وليس الأمر -ولم يكن قط-حوارا، وإنما هو حيلةٌ والتفافٌ على انهزامهم أمام دين الله الذي ينتشر دون أدنى تعبٍ من أهله في الدعوة إليه.

هذه الحقائق الإلهية يجب ألا تغيب عن بال أى مؤمنٍ حال تعامله مع قضية الحوار المزعومة تلك. وأن يعلم أننا أُمرنا بالتعايش وليس التنازل، وبالدعوة إلى الله بالحسنى وليس الذوبان في عقائد غيرنا.

\*\*\*\*\*\*

فقوله -تعالى -: {وقالوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا} بَيَانٌ لِعَقِيدَةِ الْفَرِيقَيْنِ فِي التَّفَرُّقِ فِي الدِّينِ، وَالضَّمِيرُ فِي (وَقَالُوا) لِأَهْلِ الْكِتَابِ والالتفاتِ إلى (ضمير الغائب) لإبعادهم من مقام المخاطبةِ والإعراضِ عنهم تبكيتاً وتنفيراً ولتعديدِ جناياتهم وجرائمهم، وفيه شروعٌ في بيان فنٍ آخرَ من فنون كفرِهم وهو إضلالُهم لغيرهم إثرَ بيانِ ضلالِهم في أنفسهم.

وحرف (أَوْ) لِلتَّوْزِيعِ أَوِ التَّنْوِيعِ ، أَيْ إِنَّ الْيَهُودَ يَدْعُونَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا وَيَحْصُرُونَ الْهِدَايَةَ فِيهَا ، وَالنَّصَارَى يَدْعُونَ إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا وَيَحْصُرُونَ الْهِدَايَةَ فِيهَا - وَهَذَا الْأُسْلُوبُ مَعْهُودٌ فِي اللُّغَةِ - وَلَوْ صدَقَ أَيُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُهْتَدِيًا ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ، وَكَيْفَ وَهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى كَوْنِهِ إِمَامَ الْهُدَى وَالْمُهْتَدِينَ ؛ لِذَلِكَ قَالَ - تَعَالَى - مُلَقِّنًا لِنَبِيِّهِ الْبُرْهَانَ الْأَقْوَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حنيفا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } أَيْ بَلْ نَتَّبِعُ أَوِ اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي لَا نِزَاعَ فِي هُدَاهُ وَلَا فِي هَدْيِهِ ، فَهِيَ الْمِلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْجَادَّةِ بِلَا انْحِرَافٍ وَلَا زَيْغٍ ، الْعَرِيقَةُ فِي التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ بِلَا وَثَنِيَّةٍ وَلَا شِرْكٍ. والأمر في {قل} فيه ردٌ صريح وكلمةٌ واحدة صلبة راسخة ترد على كل انحرافٍ، و{بل} حرف إضرابٍ ينكر كل تخرصاتهم وسفاهة عقولهم، ثم يثبت الحق الصُراح بعد معرفة ادعائهم الذي لا يملك أى دليلٍ.

وَالْحَنِيفُ فِي اللُّغَةِ : الْمَائِلُ ، وَإِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ-عليه السلام ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي عَصْرِهِ كَانُوا عَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الْكُفْرُ ، فَخَالَفَهُمْ كُلَّهُمْ وَتَنَكَّبَ طَرِيقَتَهُمْ ، وَلَا يُسَمَّى الْمَائِلُ حَنِيفًا إِلَّا إِذَا كَانَ الْمَيْلُ عَنِ الْجَادَّةِ الْمُعَبَّدَةِ ، وَفِي الْأَسَاسِ : مَنْ مَالَ عَنْ كُلِّ دِينٍ أَعْوَجَ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْمُسْتَقِيمِ ، وَبِهِ فَسَّرَ الْكَلِمَةَ بَعْضُهُمْ ، أَوْرَدَ لَهُ شَاهِدًا مِنَ اللُّغَةِ وَهُوَ أَقْرَبُ .

وَمِنْهُ قيل للأعرج: أَحْنَفُ، تَفَاؤُلًا بِالسَّلَامَةِ، كَمَا قَالُوا لِلَّدِيغِ: سَلِيمٌ تفاؤلاً بنجاته، والصحراء المُهلكة: يقال لها كذاك مَفَازَةٌ. قَالُوا: فَكُلُّ مَنْ أَسْلَمَ لِلَّهِ واستقام على ذلك وَلَمْ يَنْحَرِفْ عَنْهُ فِي شَيْءٍ فَهُوَ حَنِيفٌ.

قلتُ: وكلا المعنيين في الآية قائم، فالمسلم الحنيف هو المستقيم على دين الله، وهو المائل عن غيره من النِحل والمِلل إلي هديه وظلاله. ([[5]](#footnote-5))

قال الإمام الرازي: واعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ بِالدَّلَائِلِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ صِحَّةَ دِينِ الْإِسْلَامِ ذكر عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: {كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا} وَلَمْ يَذْكُرُوا فِي تَقْرِيرِ تلك شُبْهة شيئاً، بَلْ أَصَرُّوا عَلَى التَّقْلِيدِ، فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ مِنْ وجهين: -

الْأَوَّلُ: ذَكَرَ جَوَابًا إِلْزَامِيًّا وَهُوَ قَوْلُهُ: {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ} وَتَقْرِيرُ هَذَا الْجَوَابِ أَنَّهُ إِنْ كَانَ طَرِيقُ الدِّينِ التَّقْلِيدَ فَالْأَوْلَى فِي ذَلِكَ اتِّبَاعُ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُخْتَلِفِينَ قَدِ اتَّفَقُوا عَلَى صِحَّةِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فَكَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ: إِنْ كَانَ الْمُعَوَّلُ فِي الدِّينِ عَلَى الِاسْتِدْلَالِ وَالنَّظَرِ، فَقَدْ قَدَّمْنَا الدَّلَائِلَ، وَإِنْ كَانَ الْمُعَوَّلُ عَلَى التَّقْلِيدِ فَالرُّجُوعُ إِلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَرْكُ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ أولى.

والوجه الثاني: فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَدَّعِي أَنَّهُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قُلْنَا: لَمَّا ثَبَتَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ قَائِلًا بِالتَّوْحِيدِ، وَثَبَتَ أَنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ بِالتَّثْلِيثِ، وَالْيَهُودَ يَقُولُونَ بِالتَّشْبِيهِ، فَثَبَتَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ، كَانَ هُوَ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وهو مقرر بقوله تعالى: {حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}. انتهى ([[6]](#footnote-6))

قلتُ: وفي ذلك تلميحٌ بأن ملتهم ليست مستقيمة، بل هي معوجة، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به.

وهكذا نجد طريقة القرآن العظيمة في بسط وتقرير العقائد من جهةٍ متسعةٍ للعقل تبتعد عن الإغراق في التعقيد العقلي الصارف عن تأمل الحقائق؛ وبذلك لا تقع في فخ السفسطة والجدل. فالإسلام دين الفطرة والنقاء والبساطة التي تدخل القلب والعقل والوجدان بلا تكلفٍ ولا عنت.

\*\*\*\*\*

## {قولوا آمنا بالله...}

(ثم يدعو الله المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين، من لدن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى بن مريم، إلى الإسلام الأخير. ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد:

«قُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ، وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا، وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ، وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى، وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ. لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً، وبين الرسل جميعاً، هي قاعدة التصور الإسلامي وهي التي تجعل من الأمة المسلمة، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل العريق، السائرة في الدرب على هدى ونور. والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصبٍ ولا اضطهاد. والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام). ([[7]](#footnote-7))

إنها قاعدة الإسلام الأسمى والأشمل التي تعطيه الحق في أن يكون الدين الخاتم والعالمي والكامل للبشرية: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: 285]. فهذا هو دين الله، الذي حمله الأنبياء والرسل إلى عباد الله. فمن آمن برسول من رسل الله ولم يؤمن بجميع الرسل، فليس من المؤمنين، ومن تمسك بكتابٍ وكفر بما سواه من كتب الله، فهو من الكافرين. وقد ذمّ الله أهل الكتاب-من اليهود والنصارى-الذين فرّقوا دين الله وتوعدهم بالعذاب الأليم،

فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً} (150- 151: النساء)؛ على حين الله مدح المؤمنين الذين يؤمنون برسله جميعا، ولم يفرقوا بين أحد منهم، وأنزلهم منازل رضوان، وأوسع لهم فى جناب رحمته ومغفرته، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً} : (252: النساء).

وذلك لأن الجميع من الله وما اختلاف الشرائع إلا اختلافا في الفروع يقتضيه الزمان، وأما أصل التوحيد فباقٍ في صحيح كل الأديان السماوية. ولكن القوم أشركوا بالله وحرفوا دياناتهم فما كانت دعوة رسول الله محمد إلا ثورة تصحيحٍ للدين وإعادةً للحق إلى موضعه.

قيل لمسيحي أسلم: لماذا خرجت عن المسيحية؟ فقال: إني لم أخرج عن المسيحية دين المسيح، ولكن دخلت فيها بدخولي في الإسلام.

أقول: فليس النصارى في الحقيقة على دين المسيح الذي قوامه التوحيد؛ ولذلك عارض بعض فقهاء العصر الزواج بالكتابية محتجا بأنها مشركة لا تؤمن بالكتاب الحق الذي يصدق محمدا – عليه السلام-ودينه، وفي رأيه وجاهة، وفيه من حيث الفقه نظر.

وأعجبني عنوان لكتابٍ وضعه أحد الذين من الله عليهم بالإسلام: (ربحت محمدا ولم أخسر المسيح).

ويعجبني في هذا المقام أيضاً قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز: (يجب أن يُفهم-أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة-ليس نقضا لها، وإنما وقوفا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر.

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقصر غذاءه على اللبن، وجاء الثاني من مرحلته التالية فقرر له طعاما لينا، وطعاما نشويا خفيفا، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأمر له بغذاء قوى كامل.

لا ريب أن هاهنا اعترافا ضمنيا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفَّقا كل التوفيق في علاج الحالة التي عُرضت عليه، نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية، كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضا من ألفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق على ضربين: -

تصديقٌ للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات: -

(تشريعات خالدة) لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا التسع ونحوها).

و (تشريعات موقوتة) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها. وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة.

فشريعة التوراة-مثلا-عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك (لا تقتل) و(لا تسرق) و.... فطابعها البارز تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة.

وشريعة الإنجيل تجيء بعدها فتقرر هذه الأمور، ثم تترقى فتزيد آدابا مكملة (أحسن إلى من أساء إليك).

وأخيرا تجيء شريعة القرآن فتراها تقرر كلا المبدأين في نسق واحد {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ}.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطواتٍ متصاعدةً، ولبناتٍ متراكمةً في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع. وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أن أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغٍ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء.

وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير فقال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين». ([[8]](#footnote-8))

قال الزمخشري: {قُولُوا آمنا...} خطابٌ للمؤمنين. ويجوز أن يكون خطابا للكافرين، أى قولوا لتكونوا على الحق، وإلا فأنتم على الباطل.

قلتُ: والمقام يحتمل التأويلين، وإن كان كونه للمؤمنين أبلغ في بيان رسالة المسلمين في تبليغ عالمية هذا الدين.

فهذه رسالتنا وليس الانكفاء المهين في خندق الدفاع المستمر. فتأمل كيف يرسم لنا القرآن طريق العزة والإيجابية في النظر والفعل.

والأسباط: جمع سبط، وهو الحفيد، والمقصود الايمان بالأنبياء منهم.

قال الإمام القرطبي: والأسباط: ولد يعقوب، وهم اثنا عشر ولدا، ولكل واحد منهم أمة من الناس، واحدهم سبط، والسبط في بنى إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل. انتهى

ولماذا ذكر الأسباط مع أن ذكر يعقوب يغني عن ذكرهم، لأنهم أبناء يعقوب، وقد وصاهم باتباع ملة إبراهيم وشدد في الوصية؟ والجواب عن ذلك أنهم صاروا من بعده جموعا، كونوا العشائر والقبائل، فكانت لهم صفة بهذا الانفراد. وكذلك للتذكير بمشهد الوصية التي كانت من يعقوب ببنيه، وما أبدعه من اتصالٍ بين آيات الله.

(وقوله تعالى: {وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ} معناه: وآمنا-أيضا-بالتوراة التي أعطاها الله-تعالى-لموسى، وبالإنجيل الذي أعطاه لعيسى، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقا لهم في نبوتهم.

وعطف-سبحانه-عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقا للتوراة، وما نسخ منها إلا أحكاما يسيرة، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله على لسانه: {وَمُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ، وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}.

وقدَّم-سبحانه-الإيمان بالله على غيره لأن الإيمان بالأنبياء. وما أنزل إليهم متوقف على الإيمان بالله.

وقدَّم الإيمان بما أنزل إلينا-نحن معشر المسلمين-وهو القرآن الكريم لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهي الإجمال والتفصيل، أما ما أنزل على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل، فيكفي الإيمان به على وجه الإجمال). ([[9]](#footnote-9))

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة -رضي الله عنه -قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا (آمنا بالله وما أنزل إلينا ...) الآية.

قال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان عند قوله تعالى {وما أنزل إلى إبراهيم}: لم ييين هنا هذا الذي أنزل إلى إبراهيم، ولكنه بيّن في سورة الأعلى أنه صحف وأن من جملة ما في تلك الصحف (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وذلك في قوله (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى). انتهى

\*\*\*\*

## قوله تعالى:{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فقد اهتدوا}

ثم يعلن السياق القرآني دعوته الجامعة غير المفرقة ولا المتشنجة المتعصبة (!!) إلى كلمة الحق والكلمة السواء والدين الصحيح الذي دان به إبراهيم عليه السلام – إمام الموحدين-وكل الأنبياء. ([[10]](#footnote-10))

وهنا يأتي الحكم قاطعا ومثبِّتا للمؤمنين المتبعين خُطَى التوحيد خلف نبى الله إبراهيم وتحت راية حفيده محمد عليهم الصلاة والسلام: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فقد اهتدوا}

الضمير في قوله تعالى: (فَإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم به) يعود إلى اليهود والنصارى؛ لأنهم هم الذين ظنوا أن الاهتداء عندهم فقط، َوالمعنى فإن آمنوا بإيمانٍ مثل الذي آمنتم به، أي مشابهٌ له من حيث إنه يجمع الناس على الوحدانية لله تعالى، والوحدة في الرسالة، والوحدة في الإنسانية بالصورة التي أنتم عليها - فقد اهتدوا، فكلمة " مثل " في موضعها من القول ولها دلالتها، فالمراد - وعند الله تعالى علمه - أن يؤمنوا بما آمنتم على أن يكون مثله في المعنى الجامع، ولقد تهجم بعض المفسرين ، فقال إن "مثل " في هذه الآية مُقْحَم " وأنه زائدٌ، وإنما ألفاظ القرآن ليس فيها زائدٌ ولا مقحم، وكلُّ لفظٍ في موقعه له عظيم الدلالات والمعاني لا يؤديها، إنما هي تنزيل من حكيم حميد، وقليل من الدرس والتأمل يقود البصير إلى ذلك.

فحيث أن أهل الكتابين يدَّعون أنهم موحِّدون، وأنهم ليسوا مشركين، فلو قيل لهم آمنوا بما نؤمن نحن المسلمين به سيقولون: نحن موحدون مثلكم نؤمن بالله، وهنا يأتي دور الاسم (مثل) الذي يعبر عن التلاقي في الجوهر، وجوهر الدين الحق هنا هو إخلاص التوحيد لله، كما قال تعالى: { قُلْ يَا َهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.

وفيه أيضا مراعاة أيضا لاختلاف الشرائع بين الديانات، فأصلها في التوحيد واحد وتشريعاتها تختلف. فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم -«أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَّتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ». (رواه البخاري)

و(العَلَّات) هى الضرائر، أى إخوة لأب واحد، وهو من باب التمثيل وبيانه في قَوْله: (وَدينهمْ وَاحِد)، أَي: التَّوْحِيد أمر جامعٌ لكل الأنبياء دون الْفُرُوع للِاخْتِلَاف فِيهَا، قَالَ تَعَالَى: {لكل جعلنَا مِنْكُم شرعة ومنهاجاً} (الْمَائِدَة: 84). وَيُقَال: دينهم أَي: أصُول الدّين وأصول الطَّاعَات وَاحِد، والكيفيات والكميات فِي الطَّاعَة مُخْتَلفَة.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمُمَاثَلَةَ وَقَعَتْ بَيْنَ الْإِيمَانَيْنِ، أَيْ: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ إِيمَانِكُمْ -توحيدا ونصرةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم-فقد اهتدوا وإلا فهم في تيهٍ وضلال).

وَقَالَ فِي الْكَشَّافِ: إِنَّهُ مِنْ بَابِ التَّبْكِيتِ، لِأَنَّ دِينَ الْحَقِّ وَاحِدٌ لَا مِثْلَ لَهُ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، قَالَ: أَيْ: فَإِنْ حَصَّلُوا دِينًا آخَرَ مِثْلَ دِينِكُمْ مُسَاوِيًا لَهُ فِي الصِّحَّةِ وَالسَّدَادِ فَقَدِ اهْتَدَوْا. انتهى

والمعنى أنها دعوة عادلةٌ منصفةٌ لأهل الكتاب بالاجتماع على توحيد الله في أصل الدين الحق؛ وإلا فالقوم قد رضوا أن يضعوا الدين لأنفسهم ويكفِّروا بعضهم البعض ويختلفوا فيما حقه الاجتماع.

ولذا قال تعالى: {وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاق} والتولي هو الترك والإعراض بالجسم الذي يدل على الإعراض النفسي، والمعنى فإن أعرضوا عن الإيمان الجامع للرسالة الإلهية فهم في شقاقٍ مستمر، لأن من ترك الوحدة في الرسالة الإلهية فقد اختار النزاع والمجادلة، وحيث دخل النزاع في الدين كانت العصبية والتعصب، والانحياز، ويفقد الدين سلطانه في القلوب، ويصير لجاجةً، وعداوةً وبغضاءَ بين الناس، ويكون كلُّ ملةٍ أو دينٍ في شِق منحازٍ لَا يلتقي ولا يهتدي؛ ولذلك قال تعالى: {فِي شِقَاق} أي عداوة وخلاف، والشقاق: أن يكون كلٌ منهم في شَقٍّ من الأرض أو الفكر والنفس. وَأَصْلُهُ مِنَ الشَّقِّ وَهُوَ الْجَانِبُ، ُوَقِيلَ: إِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ فِعْلِ مَا يَشُقُّ وَيَصْعُبُ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَحْرِصُ عَلَى فِعْلِ مَا يَشُقُّ عَلَى صَاحِبِهِ، وَيَصِحُّ حَمْلُ الْآيَةِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ: وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّا وَأَنْتُمْ ... بُغَاةٌ مَا بَقِينَا في شقاق.

وإنه عند ذلك تكون العداوة المستحكمة من أولئك الذين تولوا عن الحق، وكأن الله تعالى ينِّبه نبيه الأمين، إلى أن يتوقع منهم الشر، والبغضاء المستمرة؛ ولذلك أشار سبحانه إلى أنه معه، وأنه ناصره تعالى عليهم؛ ولذا قال تعالى: {فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم} والمعنى: إذا أظهروا العداوة، وصاروا أعداءً لكم فسيكفيكهم، أي فسيكون الله تعالى كافيا لك، ومانعك منهم. و" السين " الدالة على المستقبل القريب هنا لتأكيد وقوع الفعل منهم، والمعنى أن عداوتهم ستُرَدُّ في نحورهم ويكون وبالهم عليهم.

وقد أكد سبحانه وتعالى حمايته لنبيه ولمن معه بقوله تعالى: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} قال الزمخشري: وعيدٌ لهم أو وعد للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام ُ. قال ابن عرفة: بل هما معا فهو وعدٌ ووعيد. أي أنه سبحانه وتعالى سميعٌ لما يسرون وما يعلنون، عليم بما ينوون ويخططون، لا يضرك كيدهم في شيء وإنما يعود كيدهم عليهم وبالا.

وهنا عدة حقائق تزكِّيها الآية الكريمة: منها أن دعوة الإسلام دعوة جامعةٌ لا مفرقة، دعوة إلى كلمة سواء في التوحيد والعودة إلى دين نبى الله إبراهيم وإخلاص العبادة لله تعالى ونبذ الشرك وأهله. وأن رفض هذه الدعوة هو من ناحيةٍ داعيةٌ للتفرق والشقاق والعداوة بين المتفرقين الذين ارتضوا أحبارهم ورهبانهم يصنعون لهم الدين الزائف ([[11]](#footnote-11))، وما يزالون متفرقين. ([[12]](#footnote-12)) ومن ناحيةٍ أخرى إعلانٌ للحرب على الدين الحق وأهله كما قال سبحانه: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} [البقرة: 109]. ثم إن موقف أهل الحق يجب أن يكون موقف الواثق من نصر ربه ورد كيد المشركين إلى نحورهم.

وهى -إذن-معانٍ رائقةٌ واضحةٌ وقوانينُ لا تتبدل يعيها أولو الأبصار، وبذلك تتسق الآيات في سورة البقرة التي يمهد السابق فيها للاحق، ويضيف اللاحق للسابق في انسيابيةٍ عذبةٍ من الدلالات التي تضع المجتمع المؤمن على طريق الكفاح لنشر كلمة الله على نورٍ وبصيرة.

إن الإيمان الجامع بالنبيين أجمعين لَا يفرق بين أحد من رسله، لأنهم جميعا يحملون رسالات ربهم إلى عباده وهي واحدة في مضمونها وأصلها، إن هذا الإيمان هو دين الله تعالى، وهوِ ملة إبراهيم وهي الشارة الوحيدة للدين الحق؛ ولذا قال تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمنْ أَحْسنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنحْن لَهُ عَابِدُونَ}.

\*\*\*\*\*\*\*

## قوله تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمنْ أَحْسنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنحْن لَهُ عَابِدُونَ}.

قوله تعالى: {صِبْغةَ الله} أي دين الإسلام، استعار له هذا الاسم إشعارًا بأن الله تعالى هو الذي يفعل ذلك، وكما يفعل الصبَّاغ في الثوب المصبوغ.

قال علماء المعاني: هو من باب المشاكلة، وذلك أن النصارى امتنعوا من تطهير أولادهم بالختان؛ كانوا إذا ولد لهم ولد غمسوه في ماء المعمودية، ويقولون: الآن صار نصرانيًا. ويقولون: قد انصبغ بالنصرانية. فقال تعالى ذلك مقابلةً لقولهم. ويقرب منه في باب المشاكلةقول الشاعر:

قالوا اقترحْ شيئًا نجِدْ لك طبخَهُ ... قلتُ: اطبخوا لي جبةً وقميصا. ([[13]](#footnote-13))

قلتُ-متأمله: ومن باب التبكيت أيضا لما ابتدعوا من دينٍ يخالف دين إبراهيم الحنيف؛ يخبرهم أن الذي فطر الله عليه الناس هو الإسلام، وهو ما صبغ الله به الأرواح في أصل خِلقتها، ثم ابتدعتم ما صبغتم به ملتكم الباطلة {وَمنْ أَحْسنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} فهو يهدي للحق والعدل؛ وما ابتدعتموه يهدي للضلال والخسران ولذلك أمرتنا الآيات أن نردد في نفسٍ واحد باختيارنا النهائي والذي فيه الهدى والنجاة؛ نرددها عاليا: {وَنحْن لَهُ عَابِدُونَ}.

والتعبير الراقي جدا (صبغة الله) تفوح منه دلالات العظمة الربانية في هذا الانتقاء اللغوي البارع؛ فالصبغ هو تشرب اللون بحيث يصير ثابتا لا يقبل التغيير، وهو أقوى في المعنى من مجرد التلوين، كذلك إضافة هذه الصبغة إلى الله تعالى فيها خصوصية الخلق على معاني الفطرة النقية التي لا تتشربها القلوب ولا تزيلها أمواج الشبهات، وما الجحود والتملص إلا من الضالين الذين لم يستجيبوا لفطرتهم في قبول الحق كما قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 30] وقد أجمع السلف على تفسير الفطرة هنا بالإسلام. ([[14]](#footnote-14))

بحديث عياض بن حمار عند مسلم عن النبي-صلى الله عليه وسلم-فيما يرويه عن ربه: "وإني خلقت عبادي حنفاء كلُهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم"... الحديث.

وروى مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "كل مَولودٍ يولدُ على الفِطرة، فأبواهُ يُهودانِهِ وينصّرانه، كما تَناتَجُ الإبِلُ من بهيمةٍ جمعاءَ، هل تُحِسُ من جَدْعَاءَ؟ " قالوا: يا رسول الله، أفرأيتَ مَن يموتُ وهو صغير؟ قال: "الله أعلمُ بما كانوا عامِلِين". ([[15]](#footnote-15))

وبهيمة جمعاء (أى: سالمة من العيوب في جميع أعضائها)، و(جدعاء) أي مقطوعة الأنف أو الأذن، والمعنى في الحديث ضرب المثل بخَلقه تعالى البهيمة سالمةً من العيوب، ثم الناس يقطعون أذنها وأنفها، فكذلك خِلقة الله لقلوب الناس سالمة من الشرك ثم يبدل بها الناس الكفر والجحود؛ كما أكدت كثير من الدراسات على الشعوب البدائية التي لم تلوثها الحضارة أنها كانت على فطرة الله قبل استخرابها وتدمير ثقافاتها بواسطة المحتلين.

ومصداقا لهذا ما جاء في تقرير نشره موقع البي بي سي بعنوان:

عندما وصل الإسلام إلى أستراليا، بتاريخ 26 يونيو/ حزيران 2014:

(.... يقول عالم الأنثروبولوجيا (جون برادلي) من جامعة ميلبورن: "إذا ذهبت إلى جنوب شرقي (أرهام) ستجد هناك أثرا للإسلام في الأغاني وفي الرسومات وفي الرقص وفي طقوس الجنائز أيضا".... ويضيف: " ومن بين هذه الطقوس هناك صلاة تؤديها طائفة (يونغلو) في الساحل الشمالي لأرهام، يرددون فيها عبارة (واليفا واليفا)، وهي عبارة مشتقة من عبارة "الله تعالى"، وتردد عادة في الجنائز. ويتوجه الناس في صلاتهم غربا، أي باتجاه القبلة، كما أنهم يسجدون أيضا تماما مثلما يفعل المسلمون في صلاتهم".

وتقول (بيتا ستيفنسون) خبيرة علم الاجتماع في جامعة فيكتوريا: إن التطابق في المعاني بين معتقدات السكان الأصليين والإسلام ليس غريبا. فهم يشتركون في ممارسات مثل ختان الذكور وتعدد الزوجات وعدد من السلوكيات الثقافية مثل احترام الأرض وتوقير كبار السن.

ويرى بعض السكان الأصليين في اعتناقهم الإسلام تجديدا لحياتهم. كان محمد (ليس اسمه الاصلي) متشردا، ومدمنا على الخمر، وساعدته تعاليم الإسلام والصلاة وتحريم المسكرات والمخدرات والقمار على التغلب على الإدمان الذي أقلع عنه منذ ستة أعوام.

يقول محمد: "عندما اعتنقت الإسلام شعرت لأول مرة بأنني إنسان، قبلها كنت مشتتا بين أكثر من عقيدة وقناعة، لم أكن أبدا إنسانا مكتملا".

ويرفض محمد الانتقاد الذي يوجه له من بعض السكان الأصليين بأنه تخلى عن طريقة حياته التقليدية، ويعتقد أن ثقافة السكان الأصليين دمرها الاحتلال). انتهى ([[16]](#footnote-16))

و{صبغةَ الله} هنا منصوبة على الإغراء لفعل محذوف تقديره إلزموا واتبعوا صبغة الله، وقال الأخفش: هي بدل من قوله تعالى: {مِلَّةَ إِبْراهِيمَ}؛ قال أبو جعفر النحاس: وهو قول حسن لأن أمر الله جلّ وعزّ ونهيه ودلائله مخالطة للمعقول كما يخالط الصبغ الثوب. قلتُ: وفيه وصلٌ حسن بين سياق الآيات؛ أي نتبع ملة إبراهيم التي هي صبغة الله وفطرته التي خلق عليها الناس؛ فإنها إيمان القلوب، وزينة النفوس للمؤمنين؛ كما يتزين الجسم بزينة الثياب الملونة بأبهى الصباغ. وهذه الزينة للأرواح بفطرة الله النقية هي منحى دلالي لطيف لانتقاء اللفظ " صبغة".

وقيل: سمى الدين صبغةً؛ لأنه يظهرُ أثرُ الدين على المتديِّنِ كما يظهرُ أثر الصّبغ على الثوب، فيكون الدين شعارا ودثارا، وشكلا ومضمونا، وعقيدة قلبٍ يجاريها أثر في الأعمال والأخلاق.

ولقد بيَّن سبحانه وتعالى أن صبغة الإيمان الجامع الذي اختاره الله تعالى دينا للعالمين هي أحسن صبغة وأبهاها حساً ومعنىً، وطهارةً للباطن والظاهر؛ ولذا قال تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} استفهام غرضه الانكار والنفى أي لَا صبغة أفضل من صبغة الله تعالى؛ لأنها الحق؛ وإنَّما يدرك جمال صبغة الله تعالى، وتزيينها للقلوب والنفوس الذين يوقنون بالحق، ولذلك قال تعالى: {وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} خاضعون له لَا لسواه؛ ولذا قدم " له " على " عابدون " إذ التقديم للاختصاص فلا نعبد سواه ولا نؤمن بغيره.

## قال تعالى: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139)}

معنى الآية: قل يا محمَّد لهؤلاءِ اليهودِ والنصارى: أتحاجُّوننا في اللَّه، أي: أتجادلونَنَا في دِينِهِ، والقُرْب منه، والحُظْوة لديه سُبْحانه، والرب واحدٌ، وكلٌّ مجازًى بعمله، ثم وبَّخهم بقوله: {وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}، أي: ولم تخلصوا أنتم، فكيف تدَّعون ما نَحْن أولى به منْكُمْ. انتهى ([[17]](#footnote-17))

قرأ زيد بن ثابت (أتحاجونَّا) بإدغام النون. والمعنى: أتجادلوننا في شأن اللَّه واصطفائه النبي من العرب دونكم، وتقولون: لو أنزل اللَّه على أحدٍ لأنزل علينا، وترونكم أحق بالنبوّة منا {وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ} نشترك جميعا في أننا عباده، وهو ربنا، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، لا يختص به عجمى دون عربى إذا كان أهلا للكرامة. ([[18]](#footnote-18))

{وَلَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ} يعنى أن العمل هو أساس الأمر وبه العبرة، وكما أن لكم أعمالا يعتبرها اللَّه في إعطاء الكرامة ومنعها فنحن كذلك.

ثم قال {وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} فجاء بما هو سبب الكرامة، أى ونحن له موحدون نخلصه بالإيمان، فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوّة، وكانوا يقولون: نحن أحق بأن تكون النبوة فينا، لأنا أهل كتاب والعرب عبدة أوثان. ([[19]](#footnote-19))

قال الفخر الرازي: أَمَّا قَوْلُهُ: {وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ} فَفِيهِ وَجْهَانِ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ أَعْلَمُ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ وَبِمَنْ يَصْلُحُ لِلرِّسَالَةِ وَبِمَنْ لَا يَصْلُحُ لَهَا، فَلَا تَعْتَرِضُوا عَلَى رَبِّكُمْ.

الثَّانِي: أَنَّهُ لَا نِسْبَةَ لَكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِالْعُبُودِيَّةِ، وَهَذِهِ النِّسْبَةُ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، فَلِمَ تُرَجِّحُونَ أَنْفُسَكُمْ عَلَيْنَا، بَلِ التَّرْجِيحُ مِنْ جَانِبِنَا لِأَنَّا مُخْلِصُونَ لَهُ فِي الْعُبُودِيَّةِ، وَلَسْتُمْ كَذَلِكَ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: {وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} وَهَذَا التأويل أقرب. انتهى ([[20]](#footnote-20))

ولما كانت الشرائع مبنية بالقول المجمل على ثلاثة أشياء: الإقرار بالباري-عز وجل-، والعمل له والإخلاص في ذلك قال: قل لهم إنا قد تشاركنا في الإقرار بالله-عز وجل-وفى العمل له ونحن قد حصل لنا الإخلاص في ذلك من دونكم، فإن قيل: ومن أين أن الإخلاص حصل للمسلمين دونهم، وهل هذا إلا مجرد الدعوى؟

قيل: قد أحالهم على التأمل، وذلك ظاهرٌ بالاستقراء والتدبر، فإن الأصول الاعتقادية هي ما ذكر الله-عز وجل-في قوله: {...وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء: 136]. وإذا تأملنا حالة الإقرار بالله تعالي فقد أخلص المسلمون فيما يدعيه اليهود من التشبيه والنصارى من التثليث، وما ادعوه على جبريل أنه عدو لهم وما ادعاه اليهود على إبراهيم، حيث زعموا أنه لم يكن نبياً، وإنما كان رجلاً صالحاً، ونسبوا إليه لوطاً من الفجور ببنيه في حال سكره، وادعى النصارى في ألوهية عيسى- عليه السلام- وإنكارهم بعض ما في التوراة والإنجيل، وما ذكروه من البعث حيث قالوا {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً} وادعت النصارى أنه لا بعث، وإنما ينال الثواب والعقاب الأرواح، فإذن قول المسلمين {ونحن له مخلصون} ظاهر ...([[21]](#footnote-21))

\*\*\*\*

## قوله تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140)}.

قال الطبري-ما ملخصه: "أمْ تَقولون" ب"التاء". أى: قل يا محمد -للقائلين لَك من اليهود والنصارى: "كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا"-: أتجادلوننا في الله، أم تقولون إن إبراهيم...؟ ([[22]](#footnote-22))

بمعنى: أيّ هذين الأمرين تفعلون؟ أتجادلوننا في دين الله، فتزعمون أنكم أولى منا وأهدى منا سبيلا -وأمرنا وأمركم ما وصفنا -ببرهانٍ من الله تعالى، فتدعوننا إلى دينكم؟ فهاتوا برهانكم على ذلك فنتبعكم عليه، أمْ تزعمون أنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ، ومن سَمَّى الله، كانوا هُودًا أو نصارَى على ملتكم، فيصحّ للناس بَهتُكم وكذبكم، لأن اليهودية والنصرانية حدثت بعد هؤلاء الذين سماهم الله من أنبيائه. ([[23]](#footnote-23))

قال الزجاج: كَأنَّهُمْ قَالُوا لَهُم: بأيِّ الحُجتَين تَتَعَلَّقُون في أمْرِنَا؟ أ بالتوحِيد فنحن موحِّدون، أم باتباع دين الأنبياءِ فنحن مُتَّبِعون. ا.ه ([[24]](#footnote-24))

وفي هذا من مطالبتهم بالبرهان على ما يدعونه من الكذب ما يقصم ظهورهم ويلزمهم بالرجوع إلى الحق إن كانوا يعقلون ولذلك جاء التوبيخ الشديد في قوله تعالى: {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّه}، تأويله: أن النبي الذي أتانا ب (الآيات) المعجزات وأتاكم بها -أعلمكم، وأعلمنا أن الإِسلام دين هُؤلاءِ الأنبياءِ، ولكنكم كذبتم وجادلتم بالباطل. فليس المقصود قطعا هنا صورة السؤال ولكن ما وراءه من الغضب الرباني على أولئك الكَذَبة الهالكين.

ثم ينتقل السياق القرآني إلى التهديد الصريح لأولئك الذين يعلمون الحق من علماء اليهود ثم هم يماطلون ويكتمون الشهادة لهذا الدين، فقد علموا أن رسالة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- حق، وإِنما كفروا حسداً - كما قال الله عزَّ وجلَّ - وطلبا لدوام رياستهم وكسبهم، لأنهم كانوا يتكسبون بإِقامتهم على دينهم، أو هم يكتمون الشهادة أن إبراهيم وبنيه كانوا على دين التوحيد مسلمين ولم يكونوا هودا أو نصارى؛ يقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} والمعنى: وليس الله يترك أعمالكم الخبيثة، وأفعالكم الرديئة، ولكنه يحصيها عليكم، فيجازيكم بها في الآخرة، أو يعاقبكم بها في الدنيا.

\*\*\*\*

## قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)}.

كرَّر هذه الآية لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يُجازَون بكسبهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر فأنتم أحرى، ولا يغني أحدٌ عن أحدٍ شيئا إن لم يكن على توحيد الله وطاعته؛ فوجب التأكيد والتكرير، ولأن ذكرهم بفضيحةٍ أخرى من فضائح فكرهم تستوجب معنى غير المعنى الأول الذي ذكرت فيه الآية.

قال الراغب الأصفهاني ما معناه:

أعيدت هذه الآية من أجل أن العادة مستحكمه في الناس صالحهم وطالحهم أن يفتخروا بآبائهم ويقتدوا بهم في متحرياتهم لا سيما في أمور دينهم، ولهذا حكى عن الكفار قولهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}، فأكَّد الله تعالى القول بذلك تنبيها أن الأمر سواء أكانوا كما قلتم- وكذبتم- أو لم يكونوا على نحو ما قال: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ}، وقوله: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}، وقوله: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، فليس لكم ثواب فعلهم ولا عليكم عقابه.([[25]](#footnote-25))

\*\*\*\*\*\*\*

# تفسير الآيات من (142-152).

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) } [البقرة: 142 - 153]

\*\*\*\*\*\*

يختلج في النفس من هذه الآيات حراكٌ فكرىٌ عنيف؛ حيث تبرز وبصورةٍ صارخةٍ تلك (المفاصلة) والمباينة الكبرى بين معسكر المؤمنين ودولتهم الحنيفية، وبين معسكر أهل الكتاب وادعاءاتهم الكاذبة ومنكراتهم؛ تلك الأفكار والأفعال التي أسقطتهم من أوج تكريمهم بوراثة أنبياء الله-سبحانه-إلى حضيض الكفر والشرك والضلال.

وهي الأسباب عينها التي انتقلت بقبلة الإسلام-وللمرة الأولى-وبطريقةٍ سريعةٍ حاسمةٍ من أيديهم إلى بيت الله الحرام.

وقد جاء ذلك تتويجا لدعاءٍ خفىٍّ حيٍّي من قلب محمد-صلى الله عليه وسلم، وكذلك جاء تحويل القبلة تثبيتا للمؤمنين، وبناءً لمنهجهم المستقل في حمل راية الحنيفية الإبراهيمية، وبناء دولة الإسلام ترفرف أعلامها على قبلته الجديدة/ العتيقة؛ جديدةٌ بانتقالها من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام، وعتيقةٌ على قدر عظمة البيت العتيق.

هنا يقف التاريخ الإسلامي ليؤكد أن اليهود والنصارى لم يعودوا أهلا لحمل راية الإسلام الحق بسبب تحريفهم، وافترائهم على دين الله، وكفرهم بآخر رسل الله تعالى.

وهنا يجئ التكريم الإلهي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-ومعه التكليف الشاق بحمل راية دين الله سبحانه، والمسئولية عن قبلته الأبدية والنهائية.

وهنا أيضا الأمر بالصبر على الحرب الإعلامية الرخيصة التي سيشنها الحاقدون-وقد قدَّم الله تعالى لها، وبيَّن للمؤمنين كيف يُرد كيدها إلى نحور الحاسدين-وكيف الثبات على حمل راية هذا الدين والقيادة في ظلال منهجه.

إنها النقلة التاريخية التي ترد على كل افتراءٍ أنَّ رسالة النبى محمد-صلى الله عليه وسلم-رسالة المقتبِس من اليهودية أو النصرانية، أو أن أمته هي الأمة التابعة، وهذا الدرس المتين للمؤمنين الواعين الشامخين بأننا أمةٌ وسطٌ بين الأمم، وأن منهجنا وطريقنا هو المنهج الأقوم والطريق الأسدّ، وأننا المتبوعون لا التابعين، فإن شكَّ في ذلك شاكٌّ فهو لضعف إيمانه وفساد بصيرته.

\*\*\*\*\*

## {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ...}

هذا المقطع الشريف من الآيات فيه تذكيرٌ بالنعمة، وتأكيد للسير، وتفصيل في الطريق.

فلم يأت الحديث عن القبلة إلا بعد كل المقدمات اللازمة له. وهذا يدلنا على أهمية قضية القبلة في حياة الأمة. لقد سُبق بمقدمةٍ تعمق الثقة بالبيت وبناته، وسُبِق ذلك بمقدمة تسلب الثقة عن نوعٍ من المشوشين، وسبق ذلك ما يعمق الالتزام بطاعة الله واتباع هداه، وسبق ذلك بالأمر بالعبادة، وسبق ذلك ما يعرف به السفهاء من أهل النفاق وما يعرف به المتقون. وذلك كله ليأتي المقطع في مكانه، مُفصِّلا قضيةً جديدة سبقتها كل تلك تمهيداتها. ([[26]](#footnote-26))

فأما سبب نزول الآيات:

فقد روى الْبُخَارِيُّ في صحيحه: بسنده، عَنِ الْبَرَاءِ-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ستَّة عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ (أي ناحية وتجاه) الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَاهَا (أي إلى الكعبة بعد تحويل القبلة) صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ. فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ (هو عباد بن بشر رضي الله عنه وقيل غيره)، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ (أي أحلف) لَقَدْ صليتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَل مَكَّةَ، فدارُوا كَمَا هُمْ قَبِلَ الْبَيْتِ (أي لم يقطعوا الصلاة بل داروا على ما هم عليه وأتموا صلاتهم). وكانت اليهود أعجبهم إذ كان يصلي قِبَل بيت المقدس (أي: اعجبهم زمان كان يصلي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، وأهل الكتاب (أى والنصارى كذلك) لأنه كان قبلتهم، فإعجابهم لموافقة قبلة رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قبلتهم)، فلما ولى وجهته قبل البيت أنكروا ذلك (لم يعجبهم وطعنوا فيه). وَكَانَ الذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوّل قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالًا قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} قال البخاري: يعني صلاتكم. انتهى. ([[27]](#footnote-27))

إذن-كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة يستقبل في صلاته الصخرة التي في بيت المقدس، كما كان يفعل أنبياء بني إسرائيل قبله، ولكنه كان يحب استقبال الكعبة، ويتمنى لو أن الله حول القبلة إليها، ولذلك كان يجمع بين استقبال الكعبة وبيت المقدس، فيقف جنوبي الكعبة مستقبلا الشمال، فتكون الكعبة والصخرة في جهة واحدة، وتابع المسلمون نبيهم في ذلك. ولما هاجر الرسول إلى المدينة تعذر عليه الجمع بين القبلتين، فصلى مستقبلا بيت المقدس، وبقي على ذلك ستة عشر شهرا. ذكره ابن عباس والجمهور. ([[28]](#footnote-28))

قال ابن كثير: وذكر غير واحد من المفسِّرين؛ أن تحويل القبلة نزل على رسول الله، وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك في (مسجد بني سلمة): فسُمي (مسجد القبلتين)، وَأَمَّا أَهْلُ (قُبَاء)َ فَلَمْ يَبْلُغْهُمُ الْخَبَرُ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنَ الْيَوْمِ الثَّانِي؛ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: "بَيْنَمَا النَّاسُ بِقُبَاءَ فِي صَلَاةِ الصبح إذا جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُنْزِل عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ قُرْآنٌ وَقَدْ أُمر أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ". ([[29]](#footnote-29))

قلتُ-جامعه: ومن جميل تصاريف العلماء أنَّ أهل السنة استدلوا على (حجية خبر الواحد) بهذا الحديث وأمثاله، إذ فيه ان المسلمين امتثلوا أمراً هو من جلائل الأمور في دينهم بخبر أحدهم ولم يتطلبوا لذلك تواترا كما يحلو للمتحذلقين من أهل البدع التشنج في أخذ الدين من أخبار الآحاد الصحيحة. ([[30]](#footnote-30))

ومن العلماء مَن توسع في ذلك فاستدل بهذا الحديث وهذه الواقعة على صحة الإخبار بوقوع النسخ بخبر الواحد.

أقول: وفي استدلاله نظر؛ إذ النسخ يرفع العمل بحكم شرعيٍ متقدمٍ جملةً، فلا يبقى من العمل به شيء، وهو بهذه المثابة إهمالٌ وتعطيل لنصٍ قرآني أو حكمٍ شرعيٍ ثبت بطريق القطع فوجب أن يكون تعطيل العمل به ثابت بطريق القطع أيضاً.

أما استدلالهم بهذا الحديث ففيه حلف الصحابي على صلاته مع النبي -صلوات الله عليه-تجاه المسجد الحرام، وامتثل الناس لفعله -صلوات الله عليه-وهو بين ظهرانيهم، وأما وقوع النسخ للقبلة فقد جاء به القرآن صريحا مؤكدا.

قال العلامة المباركفوري: وفي هذه الأيام-في شعبان سنة 2 هـ/ فبراير 624 م-أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة انكشفوا عن المسلمين، ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة. ([[31]](#footnote-31))

(وعلى أية حال فقد كان التوجه إلى بيت المقدس -وهو قبلة أهل الكتاب من اليهود والنصارى -سببا في اتخاذ اليهود إياه ذريعة للاستكبار عن الدخول في الإسلام، إذ أطلقوا في المدينة ألسنتهم بالقول، بأن اتجاه محمد ومن معه إلى قبلتهم في الصلاة دليل على أن دينهم هو الدين، وقبلتهم هي القبلة وأنهم هم الأصل، فأولى بمحمد ومَن معه أن يفيئوا إلى دينهم لا أن يدعوهم إلى الدخول في الإسلام!

وفي الوقت ذاته كان الأمر شاقا على المسلمين من العرب، الذين ألفوا في الجاهلية أن يعظموا حرمة البيت الحرام وأن يجعلوه كعبتهم وقبلتهم. وزاد الأمر مشقة ما كانوا يسمعونه من اليهود من التبجح بهذا الأمر، واتخاذه حجة عليهم! وكان الرسول -صلى اللّه عليه وسلم -يقلب وجهه في السماء متجها إلى ربه، دون أن ينطق لسانه بشي ء، تأدباً مع اللّه، وانتظاراً لتوجيهه بما يرضاه.

ثم نزل القرآن يستجيب لما يعتمل في صدر الرسول -صلى اللّه عليه وسلم...

عندئذ انطلقت أبواق يهود -وقد عز عليهم أن يتحول محمد -صلى اللّه عليه وسلم -والجماعة المسلمة عن قبلتهم، وأن يفقدوا حجتهم التي يرتكنون إليها في تعاظمهم وفي تشكيك المسلمين في قيمة دينهم -انطلقت تلقي في صفوف المسلمين وقلوبهم بذور الشك والقلق في قيادتهم وفي أساس عقيدتهم.

قالوا لهم: إن كان التوجه -فيما مضى -إلى بيت المقدس باطلا فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة وإن كانت حقا فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل، وضائعة صلاتكم إليه كلها.

وعلى أية حال فإن هذا النسخ والتغيير للأوامر -أو للآيات -لا يصدر من اللّه، فهو دليل على أن محمدا لا يتلقى الوحي من اللّه! وتتبين لنا ضخامة ما أحدثته هذه الحملة في نفوس بعض المسلمين وفي الصف الإسلامي من مراجعة ما نزل من القرآن في هذا الموضوع، منذ قوله تعالى: «ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها» -وقد استغرق مقطعين كاملين في الجزء الأول -ومن مراجعة هذا المقطع في هذا الجزء أيضا. ومن التوكيدات والإيضاحات والتحذيرات التي سندرسها فيما يلي تفصيلا عند استعراض النص القرآني). ([[32]](#footnote-32))

وأما عن تحليل الآيات:

{سيقول} السين هنا تفيد المستقبل. ([[33]](#footnote-33))

والسفهاء: جمع سفيه؛ وهو خفيف العقل، والأحمق والجاهل.

وأصله في اللغة من قولهم: ثوب سفيه أي خفيف النسج.

(وقال: {السفهاء} ولم يقل: سيقولون، إظهاراً للوصف الذي استخفهم إلى هذا القول الظاهر عواره وخطأه لأهل الأديان كافةً. والسفيه الذي يعمل بغير دليلٍ، إما بأن لا يلتفت إلى أى دليلٍ بل يتبع هواه، أو يرى غير الدليل دليلاً).([[34]](#footnote-34))

قال ابن حجر العسقلاني: والمراد بالسفهاء الكفار، وأهل النفاق، واليهود؛ أما الكفار من قريشٍ فقالوا: لما حولت القبلة رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا، فإنه علم أننا على الحق.

وأما أهل النفاق فقالوا: إن كان أولا على الحق، فالذي انتقل إليه باطل، وكذلك بالعكس.

وأما اليهود فقالوا: خالف قِبلة الأنبياء، ولو كان نبيا لما خالف. ([[35]](#footnote-35))

فالألف واللام في {السفهاء} هي للعموم أي سيقول كل سفيهٍ في كل زمانٍ يقول ما قال السفهاء قبله، لأن الجمع فيها محلى باللام، وهو يفيد العموم فيدخل فيه الكل، والتخصيص بالبعض لا يدعو إليه داعٍ.

قال الألوسي-رحمه الله-:

وتقديم الله-سبحانه-الإخبار وإعلام المؤمنين (بأن السفهاء سيقولون ما قالوه) هو لتوطين نفوس المؤمنين به؛ فإن مفاجأة المكروه أشد إيلاما، والعلم به قبل الوقوع أبعدُ من الاضطراب حال وقوعه فجاةً، وكذلك فيه إعداد الجواب عن سؤالهم واستنكارهم السفيه؛ والجواب المعد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم، وفي المثل-قبل الرمي يُراش السهم، وكذلك ليكون وقوعُ ذلك بعد الإخبار به معجزة ًلسيدنا محمد-صلى الله تعالى عليه وسلم-وأن إخباره بالغيب هو عن الله –تعالى-لا غيره.

وقال القفال: إن الآية نزلت بعد تحويل القبلة، وإن لفظ سَيَقُولُ مرادٌ منه الماضي، وهذا كما يقول الرجل إذا عمل عملا فطعن فيه بعض أعدائه: أنا أعلم أنهم سيطعنون في-كأنه يريد أنه إذا ذُكر مرةً فيذكرونه مراتٍ أخرى. واحتج عليه بما في رواية أبي إسحاق وعبيد بن حميد، وأبي حاتم زيادة في حديث البراء-رضى الله عنه-السابق: فأنزل الله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهاءُ... إلخ الآية}. ([[36]](#footnote-36))

قلتُ: وليس فيه دليلٌ على أن الآية نزلت بعد قولهم يستوجب حمل "السين" في {سيقول} التي تفيد المستقبل على خلاف دلالتها والتعسف في توجيهها كما فعله القفال -رحمه الله. ([[37]](#footnote-37))

والبخاري-رحمه الله-لم يظهر في روايته أنَّ قولهم هذا هو سبب النزول، بل ما يفيد أنه تحويل القبلة هو السبب، فيكون تحويل القبلة وقع ثم جاءت الآيات تخبر بقولهم قبل أن يتفشى أو يظهروه، وأما رواية مَن ذكر القفال بنزول الآيات بعد قولهم فتحتاج إلى بحثٍ ولا أراها تقطع في ذلك.

وَالْإِخْبَارُ عَنْ أَقْوَالِهِمُ الْمُسْتَقْبَلَةِ لَيْسَ بِعَزِيزٍ فِي الْقُرْآنِ، وه من إعجازه بإخباره بغيب نفوسهم، مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا}، وقوله سبحانه: {... فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رؤوسهم} (الْإِسْرَاء: 51).

والخلاصة أن في إخبار الله تعالى بقولهم هذا قبل وقوعه رحمةٌ، وتعليم، وتلقين الحجةِ للمؤمنين، وكذلك إعجازٌ قرآنيٌ عظيمٌ يكسر حُجُب التاريخ والزمن ليخبر بقولهم قبل كونه ومع ذلك يقولون ويقولون...

وقوله تعالى: {مِنَ النَّاسِ}، والمراد منهم جنس القوم، وفائدة وصفهم بأنهم من الناس مع كونه معلوما هو التنبيه على بلوغهم الحد الأقصى من السفاهة بحيث لا يوجد في الناس سفهاء غير هؤلاء فإذا قُسِّم نوع الإنسان أصنافا كان هؤلاء صنف السفهاء فيفهم أنه لا سفيه غيرهم على وجه المبالغة، والمعنى أن كل من صدر منه هذا القول هو سفيه سواء كان القائل اليهود أو المشركين من أهل مكة تصريحاً بذمهم وتعميماً لكل من مالأهم على ذلك.

{مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} هذا قولهم، والمعنى ما الذي صرف هؤلاء المسلمين عن قبلتهم التي كانوا يُصَلُّون إلى جهتها أول الإسلام؛ وهي «بيت المقدس». ([[38]](#footnote-38))

وجاء المقول بلفظ الغيبة إشارةً إلى أنّهم قالوا ذلك فيما بينهم ولم يباشروا به المؤمنين بوجهٍ، وهذا مُرجِّحٌ لأن تكون المقالة من المنافقين.

{قُل للَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} أى ليس استقبالهما لذاتهما فيسأل عن سبب التخلف عنه وإنما ذلك حكم شرعي لا اختيار له فيه بوجه، وفيه دليل على أن لحكم الشرعي إذا لم تظهر لنا علته فالأصلُ فيه التعبد.

(أَيِ الْحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ وَالْأَمْرُ كله لله. فإن الشَّأْنَ كُلَّهُ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللَّهِ، فَحَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا، فَالطَّاعَةُ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ وَلَوْ وَجَّهَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مراتٍ إِلَى جهات متعددة فنحن عبيده، وَهُوَ تَعَالَى لَهُ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- وأُمته عِنَايَةٌ عَظِيمَةٌ، إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَجَعَلَ توجههم إلى الكعبة أَشْرَفَ بُيُوتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، إِذْ هِيَ بِنَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: {قُل للَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ}.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْنِي فِي أَهْلِ الْكِتَابِ: «إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا يَحْسُدُونَنَا عَلَى يَوْمِ الْجُمْعَةِ التِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ آمين». (رواه الإمام أحمد عن عائشة مرفوعاً). ([[39]](#footnote-39))

والحقيقة أنَّ في قوله تعالى: {يَهْدِي مَن يَشَاءُ إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ} إشارةً وتعريضاً لطيفاً بأهل الكتاب الذين حرفوا دينهم وحادوا عن صراط الله تعالى إلى أهواءهم.

وقال بعض أهل المعاني: أن فيه أيضاً تنزلاً للخصم المجادل؛ فكأنه يُقال له: إن الله هو أعلم بمَن معه الحق، وليس ذلك قدحا في يقين المسلمين في دينهم، وإنما هو مِن آداب المناظرة التي غايتها الهداية للحق والدعوة إليه؛ وليس التعالي على الناس، كما في قوله تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (سبأ: 24)، وهذا ومثله من آداب القرآن اللطيفة للمتدبرين.

قال الشيخ أبو زهرة-رحمه الله: (وإنه بلا شك كان ثَمَّة ناسخٌ ومنسوخ، وقد كان المنسوخ هو الصلاة إلى بيت المقدس، والناسخ هو الصلاة متجها إلى الكعبة، ثم إلى بيت الله الحرام). ا.ه ([[40]](#footnote-40))

والآية هنا نسخت حكما ولم تنسخ آيةً أخرى، فدل ذلك على معنى ما ذهبتُ إليه-آنفا-في تأويل الآية الكريمة: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: 106) أنه بمعنى: ما ننسخ من حكم آيةٍ أو ننسها نأتِ بخير منها في الحكم أو مثلها، وأن المفاضلة بين الأحكام في أزمانها المخصوصة لها لا بين الآيات ذاتها. ([[41]](#footnote-41))

لقد كان تحوّل النبىّ والمسلمين بقبلتهم في الصلاة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، حدثا اتخذه اليهود ذريعة للتشويش على المسلمين، وإدخال البلبلة والاضطراب على معتقدهم، فكانوا يرصدون كل حدثٍ يقع في محيط المسلمين، ليقعوا منه على سلاحٍ مسمومٍ، يعملونه في المعركة التي يخوضونها ضد الإسلام والمسلمين.

وحين أمر الله نبيه أن يتحول بالمسلمين إلى المسجد الحرام في الصلاة وجدها اليهود فرصةً سانحة للعمل، فأذاعوا أن محمدا إنما فعل ذلك على حساب عقيدته، للخلاف الذي بينه وبينهم، وأن بيت المقدس هو قبلة الأنبياء جميعا، فكيف استباح محمد لنفسه أن يخرج على شريعة الأنبياء وهو الذي يدعو إلى الإيمان بهم جميعا؟ فإذا كان دينه من عند الله، فهذا الذي فعله هو إبطال لهذا الدين، ومعالنة صريحة بالخروج على أحكامه، وأما إذا كان ما يدعو إليه من دينٍ هو من عمله، فإن له أن يغيّر فيه ويبدّل كيف يشاء، لكن على ألا يتحكك بالأديان السماوية، وألا يعقد صلة بينه وبين الأنبياء!

بمثل هذه التخرصات كان يلقى اليهود المسلمين، على ألسنة المنافقين ومَن في قلوبهم مرض، وقد أثاروا بهذه المقولات بلبلة واضطرابا! ([[42]](#footnote-42))

ومن ثَمَّ جاء الوحى القرآني يشبع هذا الموضع حقه من التأمل والنظر ليطلع المؤمن البصير على بواطن الأمور وخوافيها ويعلم كيف أنَّ المتربصين بهذا الدين يتحينون الفرص للانقضاض عليه، ثم ينتقل النص الحكيم إلى تعليم المؤمنين طرق الحِجاج القاطعة التي تقضي على حروب العدو الإعلامية وترد كيده.

\*\*\*\*\*

## أمة الوسط.

قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (143)} [البقرة: 143]

{كذلك} أي كما هديناكم إلى قبلة إبراهيم وشريعته كذلك جعلناكم أمة وسطا. ([[43]](#footnote-43))

الكاف مضافة إلى الإشارة لذلك التكريم بحمل راية الدين الحنيف ورده إلى فطرته النقية التي فطر الله تعالى عليها دينه وأحياها إبراهيم عليه السلام.

وهى ذات الإشارة إلى استبعاد الذين حرفوا دين الله من حمل الراية واحتسابهم في خانة التطرف في الدين إفراطا وتفريطا كما قال تعالى مخاطبا أولئك المنحرفين {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} (المائدة: 77) والمعنى: لا تجاوزوا الحد، والغلو: هو الإفراط والاعتداء. ثم قال: {وَلا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا ...} وهم الرؤساء من أهل الكتاب، يعني: لا تتّبعوا شهواتهم، لأنهم آثروا الشهوات على البيان والبرهان.

ولذلك قال تعالى: {وكذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} ...

والوسط في الأصل اسم للمكان الذي يستوي إليه المساحة من الجوانب، وكذلك شُبِّه به كل ما وقع بين طرفين إفراطٍ وتفريط؛ كالجود بين السرف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم جُعِل عبارةً عن المختار من كل شيء حتى قيل: فلان من أوسطهم نسباً. قال الزجاج: أي: من خيارهم، والعرب تصف الفاضل النسب بأنه من أوسط قومه، على التمثيل، فتمثل القبيلة بالوادي والقاع، فخير الوادي وسطه، فيقال: هذا من وسط قومه، ومن وسط الوادي، أي: من خير مكان فيه. ا.ه

و(الوسط) الخيار والأعلى من الشيء، حيث يُنظَر أن الوسط محفوظٌ والجوانب والأطراف يسرع إليها الخلل.

فالوسطية في الحقيقة وصفٌ ثابتٌ لعقيدة وشريعة وأخلاق الإسلام بأنها أفضل وأرقى ما يمكن أنْ يكون من نهجٍ أتتْ به السماء، فالوسطية تحديد دقيقٌ لمنهج الإسلام وطريقته في تناوله لكافة شئون الحياة وقضاياها. وذلك أنَّ الإسلام تميز عن سائر الديانات قبله بأنه الدين الخاتَم والمخاطب لكل الناس على الأرض بما يستقبل من شؤونهم جميعا وتقلبات حياتهم إلى يوم القيامة، فلزم أن يكون أكثر المناهج والشرائع مرونةً وشمولاً وتكيفاً ليلائم كل الناس وكل الأفكار والثقافات ويعالج كل الأمراض وفساد الفطرة الإنسانية إلى يوم القيامة تحت كل الظروف، ولذلك فهو الوسط.

يقول رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "إني لم أُبْعَث باليهوديَّة ولا بالنَّصرانية، ولكني بُعِثتُ بالحَنِيفِية السَّمحَةِ" (من حديث أبي أمامة رضى الله عنه). ([[44]](#footnote-44))

ومن حديث ابن عباس -رضي الله عنه -قيل: يا رسول الله! أيُّ الأديان أَحَبُّ إلى الله؟ قال: "الحَنِيفِيَّةُ السَّمحَةُ". أَي الشَّرِيعَة المائلة عَن كل دين بَاطِل فَهِيَ حنيفية فِي التَّوْحِيد سَمْحَة فِي الْعَمَل.

وما أرى تفسيراً أعمق ولا أسدَّ في تفسير الوسطية الإسلامية من هاتين الكلمتين البلغتين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوتي جوامع الكلم: (إنما بعثت بالحنيفية السمحة)؛ الحنيفية في العقيدة والفكر والمنهج، والسمحة في العمل والتشريع والحركة.

يقول صاحب الظلال-رحمه الله: ([[45]](#footnote-45))

وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه المادي الحسي.

«أُمَّةً وَسَطاً» في التصور والاعتقاد، لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي. إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح. وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطاقات حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظ الحياة وامتدادها، وتطلق كل نشاط في عالم الأشواق وعالم النوازع، بلا تفريط ولا إفراط، في قصد وتناسق واعتدال.

«أُمَّةً وَسَطاً»في التفكير والشعور، لا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة ... ولا تتبع كذلك كل ناعق ، وتقلد تقليد القردة المضحك .. إنما تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب وشعارها الدائم: الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، في تثبت ويقين.

«أُمَّةً وَسَطاً» في التنظيم والتنسيق، لا تدع الحياة كلها للمشاعر، والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب. إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان. ولكن مزاج من هذا وذاك.

«أُمَّةً وَسَطاً» في الارتباطات والعلاقات، لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم له إلا ذاته. إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه. ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو، ومن المنشطات ما يثير رغبة الفرد في خدمة الجماعة وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادما للجماعة، والجماعة كافلة للفرد في تناسق واتساق.

«أُمَّةً وَسَطاً» في المكان في سُرَّة الأرض، وفي أوسط بقاعها. وما تزال هذه الأمة التي غمر أرضها الإسلام إلى هذه اللحظة هي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض بين شرق وغرب، وجنوب وشمال، وما تزال بموقعها هذا تشهد الناس جميعا، وتشهد على الناس جميعا وتعطي ما عندها لأهل الأرض قاطبة وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك وتتحكم في هذه الحركة ماديها ومعنويها على السواء.

«أُمَّةً وَسَطاً» في الزمان، تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها.

وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء وتسير بها على الصراط السوي بين هذا وذاك.

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه اللّه لها، إلا أنها تخلت عن منهج اللّه الذي اختاره لها، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها اللّه لها، واصطبغت بصبغاتٍ شتى ليست صبغة اللّه واحدة منها! واللّه يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها.

وأمة تلك وظيفتها، وذلك دورها، خليقة بأن تحتمل التبعة وتبذل التضحية، فللقيادة تكاليفها، وللقوامة تبعاتها، ولا بد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى، ليتأكد خلوصها للّه وتجردها، واستعدادها للقيادة الراشدة. انتهى

هذا على مستوى الحنيفية (وهى الميل الحكيم عن انحرافات الجميع إلى صراط الله المستقيم)، وهى تمثل اختصاص هذه الأمة بالكمال والشمولية والرحمة والعدل في منهجها الفكري والعقدي والعملي.

وعلاقة ذلك واضحة بمسألة تحويل القبلة المسوقة في الآيات؛ التي تمثل اتخاذ المؤمنين بأمر ربهم طريقا جديدا بوجهةٍ جديدة غير طريق (المغضوب عليهم أو الضالين) الذين تركوا منهج السماء وحرفوه فضلوا، فميز الله المؤمنين عنهم بوجهةٍ غير وجهتهم وأعرق منها وأعظم (قبلة بيت الله الحرام)، وتمايز المؤمنين أيضا بمنهجهم الوسط بمعنى الأعدل والأفضل بين الديانات كلها.

\*\*\*\*\*

وأما على مستوى المعنى المكمل للوسطية وهو السماحة فيمثل الطريق الذي يتخذه المسلم مع هدايات منهج السماء فيكون بين أمرين:

أحدها: الترخص الذي يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال.

والثاني: الغلو الذي يتجاوز بصاحبه حدود الأمر والنهي.

فالأول: تفريط. والثاني: إفراط.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه. كالوادي بين جبلين. والهدى بين ضلالتين. والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه: مضيع له. هذا بتقصيره عن الحد. وهذا بتجاوزه الحد.

وقد نهى الله عن الغلو بقوله: {ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق} [المائدة: 77] .

والغلو نوعان: نوع يخرجه عن كونه مطيعا. كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار التي يرمى بها في المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشرا، أو نحو ذلك عمدا.

وغلو يخاف منه الانقطاع والاستحسار. كقيام الليل كله. وسرد الصيام الدهر أجمع. بدون صوم أيام النهي. والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه. فسددوا وقاربوا ويسروا. واستعينوا بالغدوة والروحة. وشيء من الدلجة» يعني استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة. فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها.

وقال صلى الله عليه وسلم «ليصل أحدكم نشاطه. فإذا فتر فليرقد» رواهما البخاري.

وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «هلك المتنطعون -قالها ثلاثا -وهم المتعمقون المتشددون».

وفي صحيح البخاري عنه صلى الله عليه وسلم «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا». انتهى ([[46]](#footnote-46))

\*\*\*\*\*\*\*

قال تعالى: {وكذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} أي خياراً وعدولاً؛ أصحابَ علمٍ وعمل. ولا يخلو زمان منهم لما في الحديث الصحيح: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك "، وما دام القرآن موجوداً فهم موجودون، لقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} (الإسراء: 9)

، ونزول البلاء ليس دليلاً على عدم وجود الخيار، فإن الأنبياء كانوا موجودين مع حصول الخسف والمسخ بأممهم، ولما في الحديث: " أنهلك وفينا الصالحون؟ قال نعم إذا كثر الخبث "، فالبلاء والفساد يوجد في أى زمانٍ ويكون أيضا الصالحون ولا تنافي.

\*\*\*\*\*

ثم قال تعالى: {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}

يفسرها عند المفسرين الحديث الشريف عن أبي سعيد-رضى الله عنه-قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُدعى بنوح عليه السلام يوم القيامة فيقال له: هل بلَّغتَ ما أرسِلت به؟ فيقول: نعم. فيقال لقومه: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما جاءنا ممن نذير! فيُقال له: من يعلم ذاك؟ فيقول: محمدٌ وأمته. فهو قوله: {وكذلك جعلناكم أمَّةً وسطًا لتكونوا شُهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدًا}. رواه البخاري والنسائي والترمذي وغيرهم.

قال الطبري-رحمه الله: فمعنى ذلك: وكذلك جَعلناكم أمَّة وسَطًا عُدولا لتكونوا شُهداءَ لأنبيائي ورسُلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلَّغت ما أُمرَت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكونَ رسولي محمدٌ صلى الله عليه وسلم شهيدًا عليكم، بإيمانكم به وبما جاءكم به من عندي. ([[47]](#footnote-47))

قال أهل البلاغة قدَّم -سبحانه-ذكر الشهادة في أول الآية: {لتكونوا شهداء على الناس} لبيان تعديل الله تعالى لهم وقبوله سبحانه وتعالى لشهادتنا، بينما أخَّرها بعد ذلك في قوله تعالى: {ويكون الرسول عليكم شهيدا} للدلالة على اختصاصنا بشهادة رسول الله –صلى الله عليه وسلم-علينا، وما في ذلك من التشريف، وكذلك الاحتراس لذلك الحِمل الثقيل في افتخار رسول الله بنا أو غضبه منا بأعمالنا، فرسول الله –صلوات الله عليه-كما انه يشهد بتزكيتنا، فهو رقيبٌ على أعمالنا كذلك؛ يعلمه ربه تعالى بما غيرنا وبدلنا من دينه بعده. كما جاء في الحديث الخطير-الذي رواه الشيخان واللفظ لمسلم-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-أَتَى الْمَقْبُرَةَ، فَقَالَ:

«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا».

قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ» فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ:

«أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ (أي سود لم يخالط لونها لون آخر) أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟». قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: " فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ (أي أمامهم أتقدمهم) عَلَى الْحَوْضِ أَلَا لَيُذَادَنَّ (أي ليبُعَدن) رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ (أي يُدفَع ويُطرَد) الْبَعِيرُ الضَّالّ؛ أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا (معناه بعدا بعدا لهم، والمكان السحيق البعيد.). انتهى

أقول: وفي هذا بعض تفصيل بحث علماء المعاني حيث قالوا: (فهلا قيل: لكم شهيداً) مكان " عليكم"؛ يعني أن "شهد عليه" أكثر ما تستعمل فيما فيه مضرة، كما أن"شهد له" فيما فيه منفعة، وأجيب: أن الشهيد هنا تضمن معنى الرقيب، فكان تعديته بـ "على".

ويرى الطيبي-رحمه الله وغيره: أن ذلك من تمام الشهادة بالعدالة للمسلمين حيث كانت الشهادة بعد رقابةٍ وخبرٍ لعدالتهم، ولم تكن عن تسامعٍ ومحض ثقةٍ في المشهود له ([[48]](#footnote-48))

\*\*\*\*\*\*

وقد استنبط علماء الأصول حجية الإجماع من هذه الآية لأن الله تعالى وصف هذه الأمة بالعدالة فإذا اجتمع جماعة من العدول على شيءٍ وشهدوا به لزم قبوله، ويعضده قوله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: 115].

قال السعدي-رحمه الله: وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة، حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: {وَسَطًا} فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطا، إلا في بعض الأمور، ولقوله: {ولتكونوا شهداء على الناس} يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومةٌ في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة، والفتيا، ونحو ذلك. ([[49]](#footnote-49))

\*\*\*\*\*

## اختبار أهل الإيمان وتمييز أهل النفاق...

قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}

لقد كان تحويل القبلة أولا عن الكعبة إلى المسجد الأقصى لحكمة تربوية أشارت إليها الآية ههنا:

«وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ». فقد كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب للّه، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية لغير المنهج الإسلامي المرتبط باللّه مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم؛ فقد نزعهم نزعا من الاتجاه إلى البيت الحرام ، واختار لهم الاتجاه - فترةً - إلى المسجد الأقصى ، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية ، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية ، وليظهر من يتبع الرسول اتباعا مجردا من كل إيحاء آخر ، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة ، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازا بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ أو تتلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد ..

حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول -صلى اللّه عليه وسلم. ([[50]](#footnote-50))

وفي تحليل الآية:

يقول تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا} وهي استقبال بيت المقدس في أول الأمر وتكون (كنت) على الماضي على وجهها، أو تحويل القبلة لتكون البيت الحرام في الآخر؛ وتكون(كنت) بمعنى (أنت)... {إِلا لِنَعْلَمَ} أي: علما يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالمٌ بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم، لا يُعَلَّق عليه ثوابا ولا عقابا، لتمام عدله، وإقامة الحجة على عباده، بل إذا حصلت أعمالهم، ترتب عليها الثواب والعقاب، فمعنى الآية: شرعنا تلك القبلة لنميز ونمتحن الناس...

قال الزمخشري-رحمه الله: فإن قلتَ: كيف قال: (لِنَعْلَمَ) ولم يزل سبحانه عالماً بذلك؟

قلتُ: معناه: لنعلمه علماً يتعلق به الجزاء؛ وهو أن يعلمه موجوداً حاصلاً، ونحوه: {وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} (آل عمران: 142).

وقيل: ليعلم رسول الله والمؤمنون، وإنما أسند علمهم إلى ذاته؛ لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده.

وقيل: معناه: لنميز (مَن يتبع أمر الله ممن يعصيه)، كما قال الله تعالى: {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ} (الأنفال: 37)، فوضع العلم موضع التمييز؛ لأن العلم به يقع التمييز .

(قلت-جامعه: وذكره الطبري عن ابن عباس، وحكى الطبري أيضا أن معنى لِنَعْلَمَ لنرى). انتهى ([[51]](#footnote-51))

وقوله تعالى: {وَما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها...} الآية، قال قتادة والسدي وعطاء وغيرهم: القبلة هنا بيت المقدس. والمعنى لم نجعلها حين أمرناك بها أولا إلا فتنة لنعلم من يتبعك من العرب الذين إنما يألفون مسجد مكة، أو من اليهود على ما قال الضحاك من أن الأحبار قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن بيت المقدس هو قبلة الأنبياء، فإن صليت إليه اتبعناك، فأمره الله بالصلاة إليه امتحانا لهم فلم يؤمنوا.

وقال ابن عباس: القبلة في الآية الكعبة، و(كنت) بمعنى (أنت) كقوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} (آل عمران: 110) بمعنى أنتم، أي وما جعلناها وصرفناك إليها إلا فتنة، وروي في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حُوِّل إلى الكعبة أكثر في ذلك اليهود والمنافقون وارتاب بعض المؤمنين حتى نزلت الآية، وقال ابن جريج: بلغني أن ناسا ممن كان أسلم رجعوا عن الإسلام.

وقوله تعالى: {يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ} المنقلب على عقبيه عبارةٌ عن المرتد الراجع عما كان فيه من إيمانٍ أو شغلٍ أو غير ذلك، والرجوع على العقب أسوأ حالات الراجع في مشيه عن وجهته، فلذلك شبه المرتد في الدين به، وظاهر التشبيه أنه بالمتقهقر، وهي مشية الحيوان الفازع من شيءٍ قد قرب منه. ([[52]](#footnote-52))

قال الإمام الراغب الأصفهاني في تفسيره ما مختصره: فإن قيل: كيف يُتصوَّر حقيقة انقلاب الإنسان على عقبيه؟ وكان من جوابه: أن الله تعالى أنشأ الأديان، فما زال يتمّمها شيئاً فشيئاً حتى كمَّلها بنبينا صلوات الله عليه كما قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} (المائدة: 3)، فمن أنعم عليه بأن أوجده بعد بعثته وأدرك تلك السعادة، ثم رغب عنه مائلاً إلى ما قبله من الشرائع المنسوخة فقد انقلب على عقبيه.انتهى

فهذه الحالة من الانتكاس الذي يزري بصاحبه ويجعله يفر ذليلا خائرا يخشى النور لظلامٍ في قلبه هو مَفادُ ودلالة تلك العبارة الموجعة {يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ}.

وتأمل دلالة هذا العمق في قضية اتباع السنة في التصريح الخطير في قوله تعالى: {...لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ...} فهذه لام التعليل لهذا الامتحان الخطير لتمييز أتباع الرسول من غيرهم، وهما فريقان لا ثالث لهما، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير.

قال تعالى: {وَإِنْ كَانَتْ لكبيرةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} أي: هذه القضية في صرف المسلمين عن القبلة واتباع أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-وفعله وسنته وهديه.

والمعنى: إنَّ هذه القضية {لَكَبِيرَةٌ} أي: شاقةً عسيرةٌ {إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم لهم وبسنته فيهم، فأذعنوا للأمر فزادهم هدىً. ([[53]](#footnote-53))

\*\*\*\*\*\*\*

## قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}

وذلك أنّ حُيَىُّ بنُ أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس أكانت هدىً أم ضلالةً؟ فإن كانت هدى فقد تحولتم عنها وان كانت ضلالة لقد دنتم الله بها فإن من مات منكم عليها لقد مات على الضلالة؟

فقال المسلمون: إنّما الهدى ما أمر الله تعالى به والضلالة ما نهى الله عنه.

قالوا: فما شهادتكم على مَن مات منكم على قبلتنا؟ وكان مات قبل أن تحوّل القبلة؟

فانطلقت عشائرهم إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: يا رسول الله قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم فكيف إخواننا الّذين ماتوا وهم يصلّون إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى: {وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ} أي صلاتكم إلى بيت المقدس. ([[54]](#footnote-54))

ويؤيده ما ذهب إليه البخاري -رحمه الله-في صحيحه مستدلاً على شمول الإيمان معنى العمل فقال: بابٌ الصلاةُ من الإيمان وقول الله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} [البقرة: 143] يعني صلاتكم عند البيت، ثم ساق حديث البراء حين نُسِخَت القبلةُ، وفيه: قال زهير: حدثنا أبو إسحاق، عن البراء في حديثه هذا: أنه مات على القبلة قبل أنْ تُحَوَّل رجالٌ وقتلوا، فلم ندرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى: {وما كان الله ليضيع إيمانكم} [البقرة: 143]. انتهى

## ومن نكت العقيدة

إن هذه الآية أقطع الحجج للجهمية والمرجئة في قولهم: إن الفرائض والأعمال لا تسمى إيمانًا. وقولهم خلاف نص التنزيل؛ لأن الله سمى صلاتهم إلى بيت المقدس إيمانًا، ولا خلاف بين أهل التفسير أن هذه الآية نزلت فى صلاتهم إلى بيت المقدس، ومثل هذه الآية قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) [الأنفال: 2، 3] لأن الذي يسمى مؤمنا بعمله لشىء يوجب أن يسمى ذلك الشىء إيمانًا.

ومثله أيضًا قوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) [النور: 62]، فسماهم مؤمنين بإيمانهم بالله ورسوله، وأن لا يذهبوا إذا كانوا مع نبيهم حتى يستأذنوه، واستئذانهم له عملٌ مفترض عليهم سُمُّوا به مؤمنين كما سُمُّوا بإيمانهم بالله ورسوله. ([[55]](#footnote-55))

قال أهل السنة: والإيمانُ مراتبٌ بعضها فوق بعضٍ، فليس الناقص فيها كالكامل؛ قال الله عز وجل: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا}؛ أي إنما المؤمن حق الإيمان مَن كانت هذه صفته؛ ولذلك قال {أولئك هم المؤمنون حقا}.

ومثل هذه الآية في القرآن كثير، وكذلك قوله-صلى الله عليه وسلم:” المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم" والمقصود إنما هو المؤمن المسلم حقا، ومن هذا قوله-صلى الله عليه وسلم:” أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا". ومعلومٌ أنه لا يكون هذا أكملُ في الإيمان حتى يكون غيره أنقص منه.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم:” أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله".

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: "لا إيمان لمن لا صلاة له ولا دين لمن لا أمانة له" كل ذلك يدل على أنه ليس بإيمانٍ كامل، وليس نفى الإيمان بالكلية، وأن بعض الإيمان أوثق عروةً وأكمل من بعضٍ، ونظيره كما قال-عليه الصلاة والسلام: “ليس المسكين بالطوَّاف عليكم... الحديث" يريد ليس الطواف بالمسكين حقا لأن هناك من هو أشدُّ مسكنةً منه، وهو الذي لا يسأل الناس ويتعفف. وفي الأثر:” مَن أحب في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنح لله فقد استكمل الإيمان".

ومن الدلائل على أن الإيمان قولٌ وعملٌ يزيد وينقص كما قالت الجماعة والجمهور قول الله عز وجل : {وما كان الله ليضيع إيمانكم} لم يختلف المفسرون أنه أراد صلاتكم إلى بيت المقدس فسمى الصلاة إيمانا، وأما من السنة فكثير جدا ….([[56]](#footnote-56))

فعقيدة السلف الصالح وأهل السنة وجمهور العلماء أن العمل ركنٌ ركينٌ في الإيمان، فتصديق القلب ونطق اللسان وانقياد الجوارح هى أركان الإيمان. ولا يُتصور إيمانٌ يخلو من العمل كله. كما أنَّ هناك من الأعمال ما ينافي أصل الإيمان، بحيث يكون فعله كفراً وتركه هو الإيمان لا محالة كالاستهزاء بالله ودينه وشرعه...

{إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ}

وهذا ختام مباركٌ لهذه الآية يومىء إلى حكمة الله تعالى في أحكامه، ويبشر المؤمنين بإحاطتهم برعايته وكنفه، فتغيير حكمٍ إلى حكمٍ آخر هو من رحمة الله تعالى بالمؤمنين يضع مواقيت أحكامه على وِفق الخير والمصلحة، وهذه هي الرأفة الربانية التي ترق وتدق حتى ربما تخفى على الناس. وهو تعالى يعظم من قدر مَن أطاع ولا يضيع من عمله شيئا وهذه هي الرحمة.

الرَّأْفَةُ وَالرَّحْمَةُ: مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى. وَقِيلَ: الرَّأْفَةُ أَشَدُّ الرَّحْمَةِ. والذي أراه أنَّ الرأفة أرق في معناها وأخفى من الرحمة، فهى ما بطن من الرحمة.

\*\*\*\*\*\*\*

## {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...}

هذا بيانٌ لمكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه. هذا الذي يقرره القرآن من مراعاة الرب عز وجل لخاطر نبيه ورغبته، فرسول الله كان حين دخل المدينة يصلي إلى المسجد الأقصى ويمنعه حياؤه وأدبه مع ربه أنْ يطلب إليه الصلاة إلى الكعبة وهى أحب إليه، فكان عليه الصلاة والسلام يقلِّب نظره في السماء، والله يعلم ما في قلبه الشريف، فكان أنْ شرَّفه الله وكرَّمه وصرّح بأنَّ من أسباب تحويل القبلة هي مراعاة قلب عبده وخليله، مع ما علمه الله من المصالح في ذلك.

وذلك أبلغ ما يكون من التكريم والتشريف حتى إن عائشة-عليها السلام-تقول في مثل هذا الموضع: "ما أرى ربك إلا يسارع في هواك". ([[57]](#footnote-57))

ولم يكن هواه-عليه السلام-قطُّ إلا في مرضاة الله تعالى حتى أشفق الله سبحانه من شدة حرصه على طاعته وحرصه على نشر التوحيد فقال له: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف: 6]

من فرط شفقته-صلى الله عليه وسلم-داخَلَه الحزن لامتناعهم عن الإيمان، فهوّن الله-سبحانه-عليه الحال، بما يشبه العتاب في الظاهر كأنه قال له: لم كل هذا؟ أتقتل نفسك حسرةً وتأسفا عليهم

ليس في امتناعهم أثر، ولا في الدّين من ذلك ضرر. فلا عليك من ذلك. ([[58]](#footnote-58))

وقال له تعالى في الآية الأخرى تشبهها: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 3].

يقول ا/ سيد قطب في الظلال (1/234): وفي مطلع هذه الآيات نجد تعبيرا مصورا لحالة النبي -صلى اللّه عليه وسلم -: «قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ» ...

وهو يشي بتلك الرغبة القوية في أن يوجهه ربه إلى قبلةٍ غير القبلة التي كان عليها. بعد ما كثر لجاج اليهود وحجاجهم ووجدوا في اتجاه الجماعة المسلمة لقبلتهم وسيلة للتمويه والتضليل والبلبلة والتلبيس. فكان -صلى اللّه عليه وسلم -يقلب وجهه في السماء، ولا يصرح بدعاءٍ، تأدبا مع ربه، وتحرجا أن يقترح عليه شيئا، أو أن يقدم بين يديه شيئا.

ولقد أجابه ربه إلى ما يرضيه. والتعبير عن هذه الاستجابة يشي بتلك الصلة الرحيمة الحانية الودود: «فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها» ...

ثم يعين له هذه القبلة التي علم -سبحانه -أنه يرضاها: «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» ...

قبلة له ولأمته. من معه منها ومن يأتي من بعده إلى أن يرث اللّه الأرض ومَن عليها : «وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ».

من كل اتجاهٍ، في أنحاء الأرض جميعا؛ قبلةً واحدة تجمع هذه الأمة وتوحِّد بينها على اختلاف مواطنها، واختلاف مواقعها من هذه القبلة، واختلاف أجناسها وألسنتها وألوانها؛ قبلةً واحدة، تتجه إليها الأمة الواحدة في مشارق الأرض ومغاربها. فتحس أنها جسمٌ واحدٌ، وكيانٌ واحد، تتجه إلى هدف واحد، وتسعى لتحقيق منهجٍ واحد؛ منهجٍ ينبثق من كونها جميعا تعبد إلها واحدا، وتؤمن برسول واحد، وتتجه إلى قبلةٍ واحدة.

وهكذا وحَّد اللّه هذه الأمة. وحَّدها في إلهها ورسولها ودينها وقبلتها. وحَّدها على اختلاف المواطن والأجناس والألوان واللغات. ولم يجعل وحدتها تقوم على قاعدةٍ من هذه القواعد كلها ولكن تقوم على عقيدتها وقبلتها ولو تفرقت في مواطنها وأجناسها وألوانها ولغاتها.

إنها الوحدة التي تليق ببني الإنسان فالإنسان يجتمع على عقيدة القلب، وقبلة العبادة، إذا تجمع الحيوان على المرعى والكلا والسياج والحظيرة! انتهى

\*\*\*\*\*

ومن مباحث اللغة في الآية: {قَدْ نَرى} أى ربما نرى، ومعناه: كثرة الرؤية (أى نراك كثيرا). ([[59]](#footnote-59))

قال السكندري رحمه اللَّه: وهذا من المواضع التي تبالغ العرب فيها بالتعبير عن المعنى بضد عبارته. ومنه قوله تعالى: {رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا أنْ لو كانوا مؤمنين} والمراد كثرة مودتهم للإسلام في يوم القيامة وعند معاينة جزائه وثوابه، وكذلك قوله تعالى: {وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ} ومراده إظهار عنادهم بأن علمهم برسالته يقينى مؤكد، ومع ذلك يكفرون به. ([[60]](#footnote-60))

وَمَعْنَى {تَقَلُّبَ وَجْهِكَ}: تَحَوُّلَ وَجْهِكَ إِلَى السماء، قاله قطرب.

وقال الزَّجَّاجُ: تَقَلُّبَ عَيْنَيْكَ فِي النَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ، وَالْمَعْنَى مُتَقَارِبٌ.

(قلتُ-جامعه: وعبَّر عن تقلب البصر بتقلب الوجه بيانا لكمال عبوديته-صلى الله عليه وسلم-الذي أسلم وجهه لله تعالى في كل شيءٍ حتى ما يخطر له من خاطرٍ إلا رفع وجهه لله ربه.

فكمال عبوديته-صلى الله عليه وسلم-لربه استجلبت كمال رضا الله سبحانه عنه حتى أرضاه.

فقال له: {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} ووعده بمزيد الرضا فقال له: {ولسوفَ يعطيكَ ربُّك فترضَى}.

وربما وجَّه أهل السنة قوله {تقلب وجهك في السماء} فاستدلوا به على علو الله تعالى فوق سماواته فوق عرشه). ([[61]](#footnote-61))

وَقَوْلُهُ: {فَلَنُوَلِّيَنَّكَ} هُوَ إِمَّا مِنَ الْوِلَايَةِ: أَيْ فَلَنُعْطِيَنَّكَ ذَلِكَ (من قولهم أوليت فلاناً نِعَما: أى أعطيته).

أَوْ مِنَ التَّوَلِّي: أَيْ فَلَنَجْعَلَنَّكَ مُتَوَلِّيًا إِلَى جِهَتِهَا، وَهَذَا أَوْلَى بالمقصود لِقَوْلِهِ تعالى: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ}. (وتأمل؛ فهذا من باب ترجيح السياق للمعنى)

وَالْمُرَادُ بِالشَّطْرِ هُنَا: النَّاحِيَةُ وَالْجِهَةُ، وَهُوَ منصوب لأنه ظرف مكان. ([[62]](#footnote-62))

ترضاها: أى تحبها وتميل إليها لأغراضك الصحيحة التي أضمرتها ووافقت مشيئة الله وحكمته (كما قال النسفي). وهذا التعبير فيه من إكرام الله لرسوله ما لا يخفى.

\*\*\*\*\*

{فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [البقرة: 144]

و{شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ} أى نحوه وقبله وتلقاؤه، وفي ذكر المسجد الحرام الذي هو محيط الكعبة دون الكعبة مع أنها القبلة لا المسجد على ما جاء مصرّحا به في الأحاديث إشارة إلى أنه يكفي للبعيد محاذاة جهة القبلة، قاله الألوسي.

{وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} هذا تصريحٌ بعموم الحكم المستفاد من قوله {فَوَلِّ وَجْهَكَ}.

والفائدة من ذكره مع أن خطاب النبي -صلّى الله عليه وسلّم-خطاب لأمته الاهتمام بشأن قبلة الكعبة، ودفع توهّم أنّ الكعبة قبلة المدينة وحدها، لأنّ الأمر بالصرف كان فيها، فربما فهم أن قبلة بيت المقدس لا تزال باقية. فدفعا لهذا الإيهام كان التصريح بعموم الحكم في عموم الأمكنة: {وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}. ([[63]](#footnote-63))

## لطيفةٌ فقهية

واتفق علماء الإسلام على أن استقبال الكعبة أي التوجه إليها شرط من شروط صحة الصلاة المفروضة والنافلة إلا لضرورةٍ في الفريضة كالقتال، والمريض لا يجد من يوجهه إلى جهة القبلة.

أو لرخصةٍ في النافلة للمسافر إذا كان راكبا على دابة، أو في سفينة لا يستقر بها.

فأما الذي هو في المسجد الحرام ففرض عليه استقبال عين الكعبة من أحد جوانبها، ومَن كان بمكة في موضع يعاين منه الكعبة فعليه التوجه إلى جهة الكعبة التي يعاينها.

فإذا طال الصف من أحد جوانب الكعبة وجب على من كان من أهل الصف غير مقابل لركن من أركان الكعبة أن يستدير بحيث يصلون دائرين بالكعبة صفَّا وراء صفٍّ بالاستدارة.

وأما الذي تغيب ذات الكعبة عن بصره فعليه الاجتهاد بأن يتوخى أن يستقبل جهتها.

فمن العلماء من قال يتوخى المصلي جهة مصادفة عين الكعبة بحيث لو فرض خط بينه وبين الكعبة لوجد وجهه قبالة جدارها، وهذا شاقٌّ يعسر تحققه إلا بطريق إرصاد علم الهيئة ويُعبَّر عن هذا باستقبال العين وباستقبال السمت، وهو قول بعض المالكية ونُقل عن الشافعي.

ومن العلماء من قال: يتوخى المصلي أن يستقبل جهة أقرب ما بينه وبين الكعبة بحيث لو مشى باستقامة لوصل حول الكعبة ويعبر عن هذا باستقبال الجهة أي جهة الكعبة وهذا قول أكثر المالكية، وهو قول أبي حنيفة وأحمد بن حنبل، وهو من التيسير ورفع الحرج.

ومن كان بالمدينة يستدل بموضع صلاة النبيء -صلى الله عليه وسلم-في مسجده لأن الله أذن لرسوله بالصلاة فيه، وروى ابن القاسم عن مالك أن جبريل هو الذي أقام للنبيء صلى الله عليه وسلم قبلة مسجده.

ومن أخطأ القبلة أو نسي الاستقبال حتى فرغ من صلاته لا يجب عليه إعادة صلاته عند مالك وأبي حنيفة وأحمد، إلا أن مالكا استحب له أن يعيدها ما لم يخرج الوقت ولم ير ذلك أبو حنيفة وأحمد.

وهذا بناء على أن فرض المكلف هو الاجتهاد في استقبال الجهة.

وأما الشافعي فأوجب عليه الإعادة أبداً بناءً على أنه يرى أن فرض المكلف هو إصابة سمت الكعبة. انتهى ([[64]](#footnote-64))

\*\*\*\*

قال تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)}

قال ابن كثير: أي واليهود -الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس -يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدا وكفرا وعنادا؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله: {وما الله بغافل عما يعملون}. أى أنَّ الله يحسب عليهم عنادهم في معرفة الحق وحربه مع يقينهم فيه ليجازيهم يوم القيامة بكفرهم.

\*\*\*\*\*\*

## شخصية المسلمين وهويتهم= قبلتهم.

قال تعالى: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145)}.

أذن الله سبحانه له وللمؤمنين أنْ يولوا وجوهم ناحية المسجد الحرام، وأمرهم أنْ يتحرَوا جهته في صلاتهم. ([[65]](#footnote-65))

وقد كانت القبلة الأولى ناحية المسجد الأقصى بياناً لمكانته عند المسلمين، فهو مسرى رسول الله-صلى الله عليه وسلم. وكذلك لأجل توثيق صلة رسول الله بالأنبياء قبله وأنَّ رسالتهم واحدة، ولأجل قطع عذر المشركين من اليهود والنصارى باستمالتهم لهذا الدين حتى لا يبقى لهم عذرٌ يقولون جاء الإسلام لتحدينا وخلافنا، بل جاء ليجمعكم ويجمع المسلمين على كلمةٍ سواءٍ ألا يعبدوا إلا الله.

فلما تركوا أمر ربهم وأنكروا ما عرفوه يقينا من أحقية دين الإسلام أعرض الله تعالى وأمر المسلمين أنْ يتجهوا إلى القبلة الإبراهيمية بيانا للمفاصلة التامة بين توحيد إبراهيم عليه السلام ودينه وقبلته، وبين ما صنعه اليهود والنصارى من الدين الذي حرفوه.

فكان تحويل القبلة في هذا التوقيت ليعلم الله مَن يؤمن بالله وشرعه وحكمته ومَن ينقلب على عقبيه لأدنى شبهةٍ ألقاها اليهود الحاقدون.

هنا كانت المفاصلة والمفارقة والتمايز الحقيقي بين دين الله عز وجل الحق وبين اليهود والنصارى، وهو ما نراه ضمنياً في أول سورة الإسراء.

(يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، فربما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لم يبق معها مجال لبقائهم على هذا المنصب، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلا إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمةٍ إلى أمة، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحي القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم). ([[66]](#footnote-66))

(ومن هنا كذلك كان النهي عن التشبه بمن دون المسلمين في خصائصهم، التي هي تعبيرٌ ظاهرٌ عن مشاعرَ وعقائد باطنة.

كالنهي عن طريقتهم في الشعور والسلوك سواء.

ولم يكن هذا تعصبا ولا تمسكا بمجرد شكليات. وإنما كان نظرةً أعمق إلى ما وراء الشكليات. كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة. وهذه البواعث هي التي تفرق قوما عن قوم، وعقلية عن عقلية، وتصورا عن تصور، وضميرا عن ضمير، وخلقا عن خلق، واتجاها في الحياة كلها عن اتجاهٍ.

عن أبي هريرة -رضي اللّه عنه -قال: إن رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم -قال: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون، فخالفوهم».

وقال رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم -وقد خرج على جماعة فقاموا له: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضها بعضا».

فهو نهىٌ عن تشبهٍ في مظهرٍ أو لباس. ونهى عن تشبهٍ في حركة أو سلوك. ونهى عن تشبه في قول أو أدب.

ثم هو نهىٌ عن التلقي من غير اللّه ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتحققه في الأرض. نهى عن الهزيمة الداخلية أمام أي قومٍ آخرين في الأرض. فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تتدسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين. والجماعة المسلمة قامت لتكون في مكان القيادة للبشرية فينبغي لها أن تستمد تقاليدها -كما تستمد عقيدتها -من المصدر الذي اختارها للقيادة. والمسلمون هم الأعلون. وهم الأمة الوسط. وهم خير أمة أخرجت للناس. فمن أين إذن يستمدون تصور هم ومنهجهم؟ ومن أين إذن يستمدون تقاليدهم ونظمهم؟

إن لم يستمدوها من اللّه فهم سيستمدونها من الأدنى الذي جاءوا ليرفعوه لا ليأخذوا منه!

ولقد ضمن الإسلام للبشرية أعلى أفقٍ في التصور، وأقومَ منهجٍ في الحياة.

فهو يدعو البشرية كلها أن تفيء إليه.

وما كان تعصبا أن يطلب الإسلام وحدة البشرية على أساسه هو لا على أي أساسٍ آخر، وعلى منهجه هو لا على أي منهجٍ آخر، وتحت رايته هو لا تحت أية راية أخرى.

فالذي يدعوك إلى الوحدة في اللّه، ويأبى أن يشتري الوحدة بالحيدة عن منهج اللّه، والتردي في مهاوي الجاهلية ليس متعصبا، أو هو متعصبٌ؛ ولكن للخير والحق والصلاح!

والأمة المسلمة التي تتجه إلى قبلةٍ مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه.

إن القبلة ليست مجرد مكانٍ أو جهة تتجه إليها الأمة في الصلاة.

فالمكان أو الجهة ليس سوى رمزٍ؛ رمزٍ للتميز والاختصاص. تميز الاعتقاد، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان.

والأمة المسلمة -اليوم -بين شتى التصورات الجاهلية التي تعج بها الأرض جميعا، وبين شتى الأهداف الجاهلية التي تستهدفها الأرض جميعا، وبين شتى الاهتمامات الجاهلية التي تشغل بال الناس جميعا، وبين شتى الرايات الجاهلية التي ترفعها الأقوام جميعا...

الأمة المسلمة اليوم في حاجةٍ إلى التميز بشخصيةٍ خاصة لا تتلبس بشخصيات الجاهلية السائدة، والتميز بتصورٍ خاص للوجود والحياة، والتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية وهذا التصور، والتميز برايةٍ خاصة تحمل اسم اللّه وحده، فتُعرَف بأنها الأمة الوسط التي أخرجها اللّه للناس لتحمل أمانة العقيدة وتراثها.

إن هذه العقيدة منهجُ حياةٍ كامل. وهذا المنهج هو الذي يميز الأمةَ المُستخلَفةَ الوارثة لتراث العقيدة، الشهيدة على الناس، المكلَّفة بأن تقود البشرية كلها إلى اللّه.

وتحقيق هذا المنهج في حياة الأمة المسلمة هو الذي يمنحها ذلك التميز في الشخصية والكيان، وفي الأهداف والاهتمامات، وفي الراية والعلامة.

وهو الذي يمنحها مكان القيادة الذي خُلقت له، وأُخرجت للناس من أجله. وهي بغير هذا المنهج ضائعة في الغِمار، مُبهَمةُ الملامح، مجهولة السمات، مهما اتخذت لها من أزياءٍ ودعواتٍ وأعلام)! ([[67]](#footnote-67))

(ثم إنه سبحانه بعثه بدين الإسلام، الذي هو الصراط المستقيم، وفرض على الخلق أن يسألوه هدايته كل يوم في صلاتهم ووصفه بأنه صراط الذين أنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، غير المغضوب عليهم من اليهود وأمثالهم، ولا الضالين من النصارى وأمثالهم.

جماع ذلك: أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم فهم يعلمون الحق ولا يتبعونه عملا، أو لا يتبعونه قولا ولا عملا، وكفر النصارى من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون.

ومع أن الله قد حذرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله، مما سبق في علمه، حيث قال فيما خرجاه في الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سَنَن مَن كان قبلكم حذو القُذَّة ([[68]](#footnote-68)) بالقذة حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه ". قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: " فمن».

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله عنه-عن النبي -صلى الله عليه وسلم-قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون، شبرا بشبر، وذراعا بذراع ". فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: ومَن الناس إلا أولئك؟».

فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاةٌ لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاةٌ لفارس والروم، وهم الأعاجم.

وقد كان صلى الله عليه وسلم ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخبارا عن جميع الأمة، بل قد تواتر عنه: " أنه قال «لا تزال طائفةٌ من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة».

وأخبر صلى الله عليه وسلم: «أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة ([[69]](#footnote-69))، وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم فيه بطاعته» ([[70]](#footnote-70)).

فعُلِم بخبره الصدق أنه في أمته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضا، وقوم منحرفون إلى شعبةٍ من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضا، بل قد يكون الانحراف كفرا، وقد يكون فسقا، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلا. انتهى ([[71]](#footnote-71))

وقد مضى بنا قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ...} [البقرة: 109]

إنها إذن شخصية المسلم التي تتميز عن الآخر؛ بل تكون النموذج والقدوة في العلم والعمل والخلق والسلوك.

إنها القبلة المنفردة لإحياء توحيد إبراهيم -عليه السلام -بعدما خانه أحفاد بنيه من اليهود والنصارى.

يجب أن يدرك كل مسلم ذلك ويضعه نصب عينيه ويسر على هداه مستعليا بعقيدته، وفخورا بشريعته، وعزيزا بمنهجه.

فمَن لا يدرك قيمة النور بين يديه لا يُتَصَوَّر منه أن يهزم الظلام.

إنها (الهُوَيَّة) التي تتحدث عنها الآيات. ذلك التمايز الفعلي والواقعي بيننا وبينهم. وإنها للدعوة الخبيثة التي يقترفها بعض الجهلاء أو المأجورين حين يلغون الفوارق بين الحق والباطل، بين أهل الجنة وأهل النيران، وحين يخلطون بين المعاملة والاعتقاد؛ حيث أمرنا الإسلام أن نقسط في معاملة الآخر ولم يأمرنا أن نلين في أمر عقيدتنا واختلافنا معه حتى لا تضيع القضية.

فماذا يبقى من دينك إن اعترفتَ أنك وهم سواء، أو شككتَ لحظةً في أنك على الحق وإلى الجنة وأنهم إن ماتوا على ذلك على الباطل وإلى النار. إنها -إذن-دعوة مبطَّنة للكفر.

يقول الله تعالى: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ}.

(إنهم لن يقتنعوا بدليلٍ، لأن الذي ينقصهم ليس هو الدليل إنما هو الإخلاص والتجرد من الهوى، والاستعداد للتسليم بالحق حين يعلمونه

فهم في عناد يقوده الهوى، وتؤرثه المصلحة، ويحدوه الغرض.

وإن كثيرا من طيبي القلوب ليظنون أن الذي يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لا يعرفونه، أو لأنه لم يقدم إليهم في صورة مقنعة .. وهذا وهم. إنهم لا يريدون الإسلام لأنهم يعرفونه! يعرفونه فهم يخشونه على مصالحهم وعلى سلطانهم ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذي لا يفتر، بشتى الطرق وشتى الوسائل. عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة. يحاربونه وجها لوجه، ويحاربونه من وراء ستار. ويحاربونه بأنفسهم ويستهوون من أهله مَن يحاربه لهم تحت أي ستار. وهم دائما عند قول اللّه تعالى لنبيه الكريم: «وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ».

وفي مواجهة هذا الإصرار من أهل الكتاب على الإعراض عن قبلة الإسلام ومنهجه الذي ترمز هذه القبلة له، يقرر حقيقة شأن النبي -صلى اللّه عليه وسلم -وموقفه الطبيعي: «وَما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ»

ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ في بيان الشأن الثابت الدائم للرسول -صلى اللّه عليه وسلم -تجاه هذا الأمر. وفيه إيحاء قوي للأمة المسلمة من ورائه. فلن تختار قبلةً غير قبلةِ رسولها التي اختارها له ربه ورضيها له ليرضيه، ولن ترفع رايةً غير رايتها التي تنسبها إلى ربها ولن تتبع منهجا إلا المنهج الإلهي الذي ترمز له هذه القبلة المختارة...). ([[72]](#footnote-72))

(والمراد بالقبلة هنا الدين والملّة، وموقف أهل الكتاب من النبىّ وما جاء به موقف عنادىّ، فهم منه على خلافٍ، لا يردّهم عنه أيُّ برهانٍ، ولا تنفعهم معه أيَّةُ حجةٍ، ولو جاءهم النبىُّ بكل آيةٍ قاهرة ما آمنوا له، ولا اجتمعوا إليه.

ثم هم فيما بينهم مختلفون، لا يلتقي بعضهم ببعض، ولا يستقيم بعضهم على طريق بعض!

وفى قوله تعالى: «وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ» استبعادٌ أن يميل النبىّ إلى جانبهم، لأنهم إنما يتبعون أهواءهم، ويميلون مع مُفتَرَياتهم! ([[73]](#footnote-73))

والخطابُ هنا هو لرسول الله على المجاز فلا يُتَصَوَّر منه ذلك، وإنما هو للأمة المحمدية على الحقيقة كمثل المعلم الذي يتوعد أنجب تلاميذه لا ليهدده وإنما انتهاراً لسواه ممَّن هم أقل منه.

وإلى جانب هذا الإيحاء الدائم نلمح كذلك أنه كانت هناك حالة واقعة من بعض المسلمين في غمرة الدسائس اليهودية وحملة التضليل الماكرة تستدعي هذه الشدة في التحذير ، وهذا الجزم في التعبير.

وفي هذا الخطاب توجيهٌ وتأكيد لمعنىً ذكرته الآياتُ آنفا في سورة البقرة فيه التَّيْئيسُ من رضا اليهود والنصارى الكامل عن المسلمين حتى يدعوا دينهم وفيه الدعوة للتمسك الفخور بما نحن عليه من الحق بلا أى تنازلٍ او ميوعة....

وليس للمسلم أن يتلقى إلا من اللّه. وليس له أن يدع العلم المستيقن إلى الهوى المتقلب. وما ليس من عند اللّه فهو الهوى بلا تردد.

قال تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: 49، 50].

\*\*\*\*\*\*\*\*

## {يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 146 -148]

(ومعرفة الناس بأبنائهم هي قمة المعرفة، وهي مثل يضرب في لغة العرب على اليقين الذي لا شبهة فيه.

فإذا كان أهل الكتاب على يقين من الحق الذي جاء به النبي -صلى اللّه عليه وسلم -ومنه هذا الذي جاء به في شأن القبلة، وكان فريق منهم يكتمون الحق الذي يعلمونه علم اليقين. فليس سبيل المؤمنين إذن أن يتأثروا بما يلقيه أهل الكتاب هؤلاء من أباطيل وأكاذيب. وليس سبيل المؤمنين أن يأخذوا من هؤلاء الذين يستيقنون الحق ثم يكتمونه شيئا في أمر دينهم، الذي يأتيهم به رسولهم الصادق الأمين.

وهنا يوجه الخطاب إلى النبي -صلى اللّه عليه وسلم -بعد هذا البيان بشأن أهل الكتاب: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ»). ([[74]](#footnote-74))

قال الرازي: قوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} وإن كان عاما بحسب اللفظ لكنه مختص بالعلماء منهم، والدليل عليه أنه تعالى وصفهم بأنهم {يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}، والجمع العظيم من الناس الذي علموا شيئا استحال عليهم الاتفاق على كتمانه في العادة.

يقصد-رحمه الله-الرد على من ينكر من جهلاء أهل الكتاب معرفته برسول الله-صلى الله عليه وسلم-وكيف وصفهم القرآن بمعرفته التامة.

قال: والضمير في قوله: {يعرفونه} إلى ماذا يرجع؟ ذكروا فيه وجوها.

أحدها: أنه عائدٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله ابن عباس. أي يعرفونه معرفة جلية، يميزون بينه وبين غيره كما يعرفون أبناءهم، لا تشتبه عليهم وأبناء غيرهم. ([[75]](#footnote-75))

عن عمر رضي الله عنه أنه سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنا أعلم به مني بابني، قال: ولِمَ؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي وأما ولدي فلعل والدته خانت. فقبل عمر رأسه.

وجاز الإضمار وإنْ لم يسبق له ذكر لأن الكلام يدل عليه ولا يلتبس على السامع ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنه لشهرته معلوم بغير إعلامٍ...

أخبر المؤمنين بحاله عليه الصلاة والسلام في هذه الآية فقال: اعلموا يا معشر المؤمنين أن علماء أهل الكتاب يعرفون محمدا وما جاء به وصدقه ودعوته وقبلته لا يشكون فيه كما لا يشكون في أبنائهم... وهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ} (الْأَعْرَافِ: 157) وَقَالَ عيسى عليه السلام: {وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصَّفِ: 6]. ([[76]](#footnote-76))

قال ابن عطية الأندلسي: وخصَّ الأبناء دون الأنفس وهي ألصقُ (قال: أبناءهم ولم يقل: أنفسهم)، لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهةٌ لا يعرف فيها نفسه (في أول عامٍ من عمره لا يكاد يميز نفسه في المرآة)، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه، والمراد هنا معرفة الوجه وتمييزه لا معرفة حقيقة النسب. ([[77]](#footnote-77))

وكما قال الزمخشري: أن ذلك يفيد المبالغة وحسن الاستعارة. وخص الأبناء الذكور لأن الذكور أعرف وأشهر وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق.

قلتُ-متأمله: وأرى أنَّ قوله {أبناءهم} من باب جمع التغليب الذي يشمل الذكور والإناث، فلا يحتاج حينئذٍ لتوجيه الرازي رحمه الله.

قالوا: وربما كان الضمير في قوله: {يعرفونه} راجعٌ إلى أمر القبلة.

أي: علماء أهل الكتاب يعرفون أمر القبلة ونسخها كما يعرفون أبناءهم. وهو قول ابن عباس وقتادة والربيع وابن زيد وابن جريج.

قال الطبري (ولم يذكر سوى هذا المعنى): يعرف هؤلاء الأحبارُ من اليهود، والعلماءُ من النصارى أنَّ البيتَ الحرام قبلتُهم وقبلة إبراهيم وقبلةُ الأنبياء قبلك، كما يعرفون أبناءَهم. ([[78]](#footnote-78))

قلتُ: وقد راعى الطبري رحمه الله ظاهر السياق أكثر من تأويله. وكان من عادته أن يوجه المعنى وفقا لقوانين داخلية في النص القرآني منها قرينة السياق. فتأمل.

قال الله تعالى: {وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} وذكر ذلك عن فَرِيقٍ (أى جماعةٍ فقط) مِنْهُمْ استثناءً لمن آمن منهم وهم الذين لا يكتمون الحق، أو لجهالهم الذين يقال فيهم: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ). والأول أولى لأنه قال {وهم يعلمون} أى عالمين بالحق ولأن سياق الخطاب كان لأحباهم وعلمائهم.

وتأمل دقة القرآن وإنصافه. فكما يُقال: آفة الأحكام التعميم.

قال القشيري في اللطائف: حملتهم مُسْتَكِنَّات الحسد على مكابرة ما علموه بالاضطرار، فكذلك المغلوب فى ظلمات نفسه، ألقى جلباب الحياء فلم ينجع فيه ملام، ولم يردعه عن انهماكه كلام. ([[79]](#footnote-79))

قال تعالى: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} يُحتمل أن يكون الحق خبر لمبتدأٍ محذوف (أى هو الحق من ربك) والمعنى حينئذٍ: هذا الذي يكتمونه هو الحق من ربك.

أو مبتدأ خبره (مِنْ رَبِّكَ) على معنى الحق من اللَّه لا من غيره. يعنى أن الحق ما ثبت أنه من اللَّه كالذي أنت عليه، وما لم يثبت أنه من اللَّه كالذي عليه أهل الكتاب فهو الباطل. ([[80]](#footnote-80))

{فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} الشاكِّين في كتمانهم الحق مع علمهم، أو في أنه من ربك. (أفاده الزمخشري).

قلتُ-متأمله: كثر تفسير (الممترين) خطأً بالشاكِّين. فالحديث عن المراء حديث عن جدال ونهى الرسول عن المراء والامتراء في بعض المواضع هو نهى عن الجدال وحسم لمادته في أمورٍ شدَّد الله تعال على أنها من الثوابت التي لا تصلح لجدالٍ؛ فأصل الإيمان بها موجودٌ حتى في قلوب المشركين والمنكرين كما قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14)} (النمل: 14).

ولذلك النهى عن المرية فيها هو نهىٌ عن التردد الذي يمثله اللين وجلسات الجدال؛ بل الصدع بالحق بكل قوةٍ، وهو حثٌّ قرآني وتجديدٌ لهِمَّة الرسول يفهمه أهل التربية في كل زمان.

وأما حين يحتج أحدهم بأنَّ وصف الشك ورد في كتاب الله مخاطبا رسوله حين قال تعالى في أكثر من آية {فلا تكن من الممترين} قلنا هو تجاهل للغة القرآن، واستعماله لدلالات الكلمات، فمعنى "الامتراء" هنا هو المحاجة والجدال للدفاع عن شئٍ فيه مرية إما لنصرة حق أو لنصرة باطل.

قال الراغب الأصفهاني (المتوفى: 502هـ): المِرْيَةُ: التّردّد في الأمر، وهو أخصّ من الشّكّ. قال تعالى: {وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ} (الحج/ 55)، {فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ} (هود/ 109)، {فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ} (السجدة/ 23)، {أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ} (فصلت/ 54). والامتراء والمُمَارَاة: المحاجّة فيما فيه مرية. قال تعالى: {قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} (مريم/ 34) أى يجادلون، {بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ} (الحجر/ 63)، {أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى}(النجم/ 12)أى أتجادلونه فيما يرى ، {فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً}(الكهف/ 22) أى لا تجادل .انتهى.([[81]](#footnote-81))

فالواجب حينئذٍ التعمق في دلالات وخصوصية استعمالات لغة القرآن وليس مجرد الحل السطحي لمعاني الألفاظ، وهنا تكمن أجمل وأغنى لحظات التدبر لكلام الله سبحانه.

يقول الأستاذ سيد قطب-رحمه الله هنا كلاماً نفيسا:

ورسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم -ما امترى يوما ولا شك. وحينما قال له ربه في آية أخرى: «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ». قال: «لا أشك ولا أسأل»

ولكن توجيه الخطاب هكذا إلى شخصه -صلى اللّه عليه وسلم -يحمل إيحاء قويا إلى من وراءه من المسلمين.

سواء منهم من كان في ذلك الحين يتأثر بأباطيل اليهود وأحابيلهم، ومن يأتي بعدهم ممن تؤثر فيهم أباطيل اليهود وغير اليهود في أمر دينهم.

وما أجدرنا نحن اليوم أن نستمع إلى هذا التحذير ونحن -في بلاهة منقطعة النظير -نروح نستفتي المستشرقين -من اليهود والنصارى والشيوعيين الكفار -في أمر ديننا، ونتلقى عنهم تاريخنا، ونأمنهم على القول في تراثنا، ونسمع لما يدسونه من شكوك في دراساتهم لقرآننا وحديث نبينا، وسيرة أوائلنا ونرسل إليهم بعثات من طلابنا يتلقون عنهم علوم الإسلام، ويتخرجون في جامعاتهم، ثم يعودون إلينا مدخولي العقل والضمير.

إن هذا القرآن قرآننا. قرآن الأمة المسلمة. وهو كتابها الخالد الذي يخاطبها فيه ربها بما تعمله وما تحذره.

وأهل الكتاب هم أهل الكتاب، والكفار هم الكفار. والدين هو الدين! ([[82]](#footnote-82))

\*\*\*\*\*

## {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}

قال تعالى: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} ...

ليست كلمةً عاديةً وإنما هي كلمةٌ تُكتَبُ بماء الذهب في صدور المؤمنين، فعلى مستوى البلاغة تُضْرَبُ وتُرْسَلُ مثلاً لفصاحتها ورطانتها ورصانتها. وعلى مستوى الدلالة والمعنى فهى شعار أهل الإيمان في الفصل والفراق التام بين الحق والباطل، وحيثيات ذلك الصراع الطويل بين أهل الحق وأهل الضلال... {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا}.

وبهذا يصرف اللّه المسلمين عن الانشغال بما يبثه أهل الكتاب من دسائس وفتن وتأويلات وأقاويل. يصرفهم إلى العمل والاستباق إلى الخيرات. مع تذكر أن مرجعهم إلى اللّه، وأن اللّه قدير على كل شي ء، لا يعجزه أمر، ولا يفوته شيء.

إنه الجد الذي تصغر إلى جواره الأقاويل والأباطيل.

وفي الآية تقريرٌ لطبيعة ما يرى من اختلاف الناس في اتجاهاتهم، فلكل وجهته التي يتجه إليها، وعلى المسلمين أن لا يبالوا كثيرا بهذه المشاهد المختلفة وليس عليهم إلّا أن يتسابقوا في عمل الخير ويسبقوا إليها معتقدين أنهم راجعون إلى الله وهو القادر على الإتيان بهم من أي مكان كانوا فيه ليوفيهم جزاء أعمالهم.

(يعني بقوله تعالى ذكره: "ولكلّ"، ولكل أهل ملة، فحذف واكتفى بدلالة الكلام عليه

عن ابن عباس قال: يعني بذلك أهلَ الأديان، فيقول: لكلٍّ قبلةٌ يرضَونها، ووجهُ الله تبارك وتعالى حيثُ تَوَجَّه المؤمنون. وذلك أن الله تعالى ذكره قال: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [سورة البقرة: 115].

(قلتُ: فلله درُّه من تكريمٍ للمؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم)

وأما "الوِجهة"، فإنها مصدر مثل "القِعدة" "المِشية"، من "التوجّه". وتأويلها: مُتوَجِّهٌ، يتوجَّه إليه بوَجهه في صلاته، ومعنى "التوْلية" هاهنا الإقبال، وكذلك يقال: "ولَّيت عنه"، إذا أدبرت عنه. ثم يقال: "ولَّيت إليه"، بمعنى أقبلت إليه مولِّيًا عن غيره. ([[83]](#footnote-83))

والمعنى: ولكل أهل ملةٍ ودينٍ توجه يتوجهونه ويرضونه لأنفسهم في الصلاة وفي العقيدة وفي التشريع وفي المعاملات. كما قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: 48]

وعند القرطبي: الشريعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر. وروي عن ابن عباس والحسن وغيرهما" شرعة ومنهاجا" سنةً وسبيلا. ومعنى الآية أنه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهله، والقرآن لأهله، وهذا في الشرائع والعبادات، والأصل التوحيد لا اختلاف فيه، روي معنى ذلك عن قتادة. وقال مجاهد: الشرعة والمنهاج دين محمد عليه السلام، وقد نسخ به كل ما سواه. ([[84]](#footnote-84))

وكان بعضهم يفسر الآية بمعنى آخر، وهو أن (لكلّ) شخص منّا وجهة من وجوه الخير، والله أقامه فيها، فواحد مجاهد وآخر صائم وآخر عالم وآخر حاج وآخر كثير الصدقة. ودليله قوله تعالى بعدها: {فاستبقوا الخيرات ...}. ([[85]](#footnote-85))

وليس بظاهرٍ فيما يبدو لي والله أعلم.

وفي الضمير «هو» قولان: أحدها: أنه يرجع إِلى الله تعالى، فالمعنى: الله مولّيها إياهم، أي: أمرهم بالتوجه إليها.

والثاني: أنه يرجع إلى المتولي، فالمعنى: هو موليها نفسه، فيكون «هو» ضمير كلٍ.

والجمهور يقرءون: «مولّيها»، وقرأ ابن عامر، والوليد عن يعقوب: «هو مُوَلَّاها» بألف بعد اللام. أى يوليه الله إياها. وهذه القراءة تُرجِّح كون الضمير" هو" يعود على المتولي نفسه. فهى من باب تفسير القرآن بالقرآن، واستعمال القرائن الداخلية في النص لتوجيهه. فتأمل.

ويرى الاستاذ سيد قطب من وراء تلكم الآية معنى عجيبا يشير إلى عظمة الإسلام وشموليته وتغطيته لجانبي الروح والجسد، لكلا الجانبين الغيبي المستور في النفوس والمادي المحسوس على أرض الواقع. فالنفس البشرية تتوق إلى ترجمة شعورها واعتقاداتها وتصوراتها إلى شعائر وتعبدات ومناسك.

وهو ما تجده متكاملا في العبادات الإسلامية التي تجمع بين الاتجاه القلبي والاتجاه المادي ناحية القبلة والحركات.

لذلك جاء أمر القبلة ليكون ترجمةً عمليةً جسديةً تتخذها الجوارح لاتجاه القلب نحو شىءٍ محسوسٍ خصنا وميزنا الله تعالى به... ([[86]](#footnote-86))

فكما يقول ا/ سيد قطب نصاً: في كل حركةٍ عبادةٌ وفي كل عبادةٍ حركةٌ.

يقول: فتتم الوحدة والاتساق بين كل قوى الإنسان في التوجه إلى اللّه تعالى ....

فهذا التميز تلبيةً للشعور بالامتياز والتفرد كما أنه بدوره ينشىء شعورا بالامتياز والتفرد. ([[87]](#footnote-87))

\*\*\*\*\*\*\*

يقول تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149)}.

لا مِراءَ مع أهل الكتاب، ولا التفاتَ إلى ما يرجف به المنافقون في شأن القبلة وتحول المسلمين إلى البيت الحرام، وإذن فالمسجد الحرام هو قبلتك أيها النبي، تتجه إليه أينما كنت، في الحضر أو في السفر، فذلك الأمر هو الحق المنزل إليك من ربّك، الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء. ([[88]](#footnote-88))

\*\*\*\*\*

يعود السياق فيؤكد الأمر بالاتجاه إلى القبلة الجديدة المختارة مع تنويع التعقيب.

وقد كرر سبحانه هذا الأمر ثلاث مرات تأكيدا لأهمية هذا الموضوع حتى تنقطع حجة أهل الكتاب والمشركين ومن تبعهم من المنافقين، الا الذين ظلموا منهم فلن ينقطع جدالهم وضلالهم. وسيظل اليهود يقولون: ما تحوّل الى الكعبة الا حباً لبلده، ولو كان على حق للزم قبلة الأنبياء الذي قبله. ويقول المشركون: رجع الى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا. ويقول المنافقين: انه متردد مضطرب لا يثبت على قبلة. لا تبالوا بمثل هؤلاء، فان مطاعنهم لا تضركم، واخشوني ولا تخالفوا أمري. بذلك أتم نعمتي عليكم، لعلكم تهتدون. ([[89]](#footnote-89))

(ونجد في تكرار الأمر بشأن القبلة الجديدة معنى جديدا في كل مرة. في المرة الأولى كان الأمر بالتوجه

إلى المسجد الحرام استجابة لرغبة الرسول -صلى اللّه عليه وسلم -بعد تقلب وجهه في السماء وضراعته الصامتة إلى ربه.

وفي الثانية كان لإثبات أنه الحق من ربه يوافق الرغبة والضراعة.

وفي الثالثة كان لقطع حجة الناس، والتهوين من شأن من لا يقف عند الحق والحجة.) ([[90]](#footnote-90))

\*\*\*\*\*\*

قال تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)}

قد ورد في الآيات الأمر بتولية الرسول والمؤمنين وجوههم شطر المسجد الحرام، وهو تكرار تطلَّبه المقام فكان من مقتضيات الحال التي يوجبها الكلام البليغ الرفيع، ومن مقتضيات الحال إسكات السفهاء وقطع الطريق عليهم ورفع معنويات المؤمنين حيت تأثر بعضهم بما أثاره اليهود والمنافقون والمشركون حول تحويل القبلة. ([[91]](#footnote-91))

كما تقول للرجل: ءأنت قلتَ كذا وكذا؟ فيرد مؤكد قلته وأقوله مرةً ومرةً ومرةً.

وكلمة (الناس) هنا مقصودٌ بها المنافقون واليهود والمشركون، فالألف واللام للعهد. وهى مثل قوله عليه السلام في الصحيحين: " أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله". فالمقصود بها المشركون اللذين حاربوه وجابهوا دعوته بالعناد وصد الناس عنها.

{لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إلا الذين ظلموا منهم} فإنهم لعنادهم ولَدَدِهم (شدة خصومتهم وفجورهم) لا يرجعون إلى الحق الذي يعرفونه؛ بل يكون لهم عليكم مجرد كلام هو مادة الحجة لا حجة حقيقية تستحق النقاش، وذلك بما دل عليه وصفهم بالظلم الذي هو وضع الشيء في غير محله، ويكون الاستثناء على هذا منقطعاً بمعنى: (لئلا يحتجَّ أحدٌ عليكم لكنْ الذين ظلموا يقولون أو يظهرون فجوراً ولدداً في ذلك كلاماً يسمونه حجة. (أفاده البقاعي في نظم الدرر).

«فَلا تَخْشَوْهُمْ .. وَاخْشَوْنِي»

فلا سلطان لهم عليكم، ولا يملكون شيئا من أمركم، ولا ينبغي أن تهتموا فتميلوا عما جاء كم من عندي، فأنا الذي أستحق الخشية بما أملك من أمركم في الدنيا والآخرة. ومع التهوين من شأن الذين ظلموا، والتحذير من بأس اللّه، يجيء التذكير بنعمة اللّه، والإطماع في إتمامها على الأمة المسلمة، حين تستجيب وتستقيم:

{وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.

(وهو تذكيرٌ موحٍ، وإطماعٌ دافع، وتلويحٌ بفضلٍ عظيمٍ بعد فضلٍ عظيم.

ولقد كانت النعمة التي يذكرهم بها حاضرة بين أيديهم، يدركونها في أنفسهم، ويدركونها في حياتهم، ويدركونها في مجتمعهم وموقفهم في الأرض ومكانهم في الوجود.

كانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية بظلامها ورجسها وجهالتها، ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى نور الإيمان وطهارته ومعرفته. فهم يجدون في أنفسهم أثر النعمة جديدا واضحا عميقا.

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية قبائل متناحرة، ذات أهداف صغيرة واهتمامات محدودة.

ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى الوحدة تحت راية العقيدة، وإلى القوة والمنعة، وإلى الغايات الرفيعة والاهتمامات الكبيرة التي تتعلق بشأن البشرية كلها لا بشأن ثأر في قبيلة! فهم يجدون أثر النعمة من حولهم كما وجدوه في أنفسهم.

وكانوا هم أنفسهم الذين عاشوا في الجاهلية في مجتمعٍ هابطٍ دَنِس مشوش التصورات مضطرب القيم.

ثم انتقلوا هم أنفسهم إلى مجتمع الإسلام النظيف الرفيع، الواضح التصور والاعتقاد، المستقيم القيم والموازين.

فهم يجدون أثر النعمة في حياتهم العامة كما وجدوه في قلوبهم وفي مكانهم من الأمم حولهم.) ([[92]](#footnote-92))

\*\*\*\*\*

## نعمةٌ وتذكيرٌ.

قال تعالى: {كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ} (البقرة 151، 152)

(والذي يلفت النظر هنا، أن الآية تعيد بالنص دعوة إبراهيم التي سبقت في السورة، وهو يرفع القواعد من البيت هو وإسماعيل. دعوته أن يبعث اللّه في بنيه من جيرة البيت، رسولا منهم، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

ليذكر المسلمين أن بعثة هذا الرسول فيهم، ووجودهم هم أنفسهم مسلمين، هو الاستجابة المباشرة الكاملة لدعوة أبيهم إبراهيم. وفي هذا ما فيه من إيحاء عميق بأن أمرهم ليس مُستحدَثا إنما هو قديم وأنَّ قبلتهم ليست طارئة إنما هي قبلة أبيهم إبراهيم، وأنَّ نعمة اللّه عليهم سابغةٌ.

فهي نعمة اللّه التي وعدها خليله-إبراهيم-وعاهده عليها منذ ذلك التاريخ البعيد.

إن نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم بشخصيتكم الإسلامية هي إحدى الآلاء المطَّرِدَة فيكم، سبقتها نعمة إرسال رسول منكم) ([[93]](#footnote-93))

ومن مباحث اللغة:

(الكاف) حرفٌ يستعمل أحيانا في تشبيه شخصاً بشخصٍ، أو شيئاً بشىءٍ، أو حالةٍ بحالةٍ. فتقول محمد كمحمودٍ في الخلق، أو الصبر كالشكر في الفضل، أو كتب محمد المقال كما تأمله. فشبه حاله في الكتابة كحاله في التأمل.

وهذه الآية من النوع الأخير، واختلف العلماء لأي شيءٍ تعود الكاف. ([[94]](#footnote-94))

فقالوا: هى متعلقةٌ بما قبلها.

قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: "كما أرسلنا فيكم رسولا"، ولأتمّ نعمتي عليكم ببيان شرائع ملتكم الحنيفية، وأهديَكم لدين خليلي إبراهيم عليه السلام، فأجعل لكم دَعوتَه التي دعاني بها ومسألتَه التي سألنيها فقال: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [سورة البقرة: 128] ، كما جعلت لكُم دعوته التي دعاني بها، ومسألته التي سألنيها فقال: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) [سورة البقرة: 129] ، فابتعثت منكم رَسولي الذي سألني إبراهيمُ خليلي وابنُهُ إسماعيل، أنْ أبعثه من ذرّيتهما. ([[95]](#footnote-95))

قلتُ-متأمله: وهو جيد في تقرير المناسبة بين الآيات وربطها في خط منطقيٍ واحدٍ متسق.

أو قيل: تعود على قوله تعالى: {ولأتم نعمتي عليكم} أي ولأتم نعمتي عليكم في الدنيا بحصول الشرف، وفي الآخرة بالفوز بالثواب، كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم. (ذكره الفخر الرازي)

قلتُ: وهى من باب الوعد بالنصر وإتمام النعمة على المسلمين.

واختار (الزجَّاجُ) أن تكون (كَمَا) متعلقة بقوله عزَّ وجلّ: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ). أي فاذكروني بالشكر والإِخلاص كما أرسلنا فيكُمْ رسولا...الآية. ([[96]](#footnote-96)) ورده الطبري في نقاشٍ لغوي ونحوي جيدٍ ثم قال: وهذا القولُ وإن كان مذهبًا من المذاهب، فليس بالأسهل الأفصح في كلام العرب. والذي هو أولى بكتاب الله عز وجل أن يوجِّه إليه من اللغات، الأفصح الأعرفُ من كلام العرب، دون الأنكر الأجهل من منطقها. هذا، مع بعد وجهه من المفهوم في التأويل. ([[97]](#footnote-97))

\*\*\*\*\*

{كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ...}.

(فهو- إذن- التكريم والفضل أن تكون الرسالة فيكم، وأن يختار الرسول الأخير منكم، وقد كانت اليهود تستفتح به عليكم يقولون يخرج نبى فتبعه ونقتلكم قتل عادٍ وإرم!

يقول الله تعالى: «يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا»

فما يتلوه عليكم هو الحق. والإيحاء هنا هو الإشعار بعظمة التفضل في أن يخاطب اللّه العبيد بكلامه يتلوه عليهم رسوله. وهو تفضل يرتعش القلب إزاءه حين يتعمق حقيقته.

فمَن هم هؤلاء الناس؟ مَن هم وما هم حتى يخاطبهم اللّه سبحانه بكلماته، ويتحدث إليهم بقوله العظيم، ويمنحهم هذه الرعاية الجليلة؟

مَن هم وما هم لولا أن اللّه يتفضل؟ ولولا أن فضل اللّه يفيض؟

قال تعالى: «وَيُزَكِّيكُمْ»

ولولا اللّه ما زكي منهم من أحد، ولا تطهر ولا ارتفع. ولكنه أرسل رسوله -صلى اللّه عليه وسلم -يطهرهم.

يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية، ورجس الفلسفات التي تثقل الروح الإنساني وتطمره.

ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة.

والذين لا يطهر الإسلام أرواحهم في جنبات الأرض كلها قديما وحديثا يرتكسون في مستنقع آسن وبيء من الشهوات والنزوات تزري بإنسانية الإنسان، وترفع فوقه الحيوان المحكوم بالفطرة، وهي أنظف كثيرا مما يهبط إليه الناس بدون الإيمان!

ويطهر مجتمعهم من الربا والسحت والغش والسلب والنهب، وهي كلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر، ويلطخ المجتمع والحياة.

ويطهر حياتهم من الظلم والبغي.

وينشر العدل النظيف الصريح، الذي لم تستمتع به البشرية كما استمتعت في ظل الإسلام وحكم الإسلام ومنهج الإسلام.

{...وَيُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}

وكان هذا القرآن -مع توجيهات الرسول المستمدة كذلك من القرآن -هو مادة التوجيه والتعليم. وكان مسجد رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم -الذي يُتلى فيه القرآن والتوجيهات المستمدة من القرآن -هو الجامعة الكبرى التي تخرج فيها ذلك الجيل الذي قاد البشرية... وما يزال هذا المنهج الذي خرّج ذلك الجيل وتلك القيادة على استعداد لتخريج أجيال وقيادات على مدار الزمان، لو رجعت الأمة المسلمة إلى هذا المعين، ولو آمنت حقا بهذا القرآن، ولو جعلته منهجا للحياة لا كلمات تغنى باللسان لتطريب الآذان! ([[98]](#footnote-98))

## الذكر والشكر وجذورهما في قضية الإيمان.

## {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152]

أمرٌ وجزاءٌ، أو شرطٌ ونتيجةٌ {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} ... يقول لعباده سبحانه-وهو الغني عنهم المتفضل عليهم بكل شيءٍ-: اذكروني فأذكركم، أو إنْ تذكروني أذكركم.

وأىُّ خَلْقٍ هذا الذي يستحق أنْ يبادله الله تعالى ذكراً بذكرٍ؟ بل أى شرفٍ وأى كرامةٍ على الله أنْ يكون لك في ربك نصيبٌ إنْ ذكرتَهُ ذكركَ برحمته وبره وثوابه وحبه؟!

وقال بعض العلماء: لما خَصَّ الله هذه الأمة بفضلٍ على بني إسرائيل، قال لبني إسرائيل: {اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}، فأمرهم بتذكر نعمته المُشعِرة بغفلتهم وجحودهم. وقال لهذه الأمة مُكَرِّماً: {فاذكروني}، مشرِّفاً لهم بذكر ذاته الشريفة بلا واسطةٍ، رفعاً لهم عن طلب النعمة إلى طلب المُنعِم.

"قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُكَ فِي مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ -أَوْ قَالَ: فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ -وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شِبْرًا دَنَوْتُ مِنْكَ ذِرَاعًا، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوْتُ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتُكَ أُهَرْوِلُ". ([[99]](#footnote-99))

ذكروا في شرحه:

قوله: (إن ذكرتني في نفسك) أي سرا وإخلاصا وتجنبا للرياء (ذكرتك في نفسي) أي أُسِرُّ بثوابك على قدر إخلاصك، وأتولى بنفسي إثابتك لا أتركه لأحدٍ من خلقي فهو وارد على منهج المشاكلة.

أو المعنى: إنْ خلوتَ بذكري أخليتُ سرك عن سوايَ، وإن أخفيت ذكرك إجلالا لي أخفيتكَ في غيبي فلا ينالك مكروهٌ.

وقوله: (وإن ذكرتني في ملأ) افتخارا بي وإجلالا لي بين خلقي (ذكرتك في ملأٍ خيرٍ منهم) أي ملأ الملائكة المقربين مباهاةً بكَ وإعظاما لقدرك.

وخيرية الملائكة من جهة أن حالتهم واحدة في الطاعة أما المؤمنون فهم بين طاعة ومعصيةٍ، وهِمةٍ وفترة، وجد وتقصير. والملأ الذي عنده سبحانه لا يعصون الله بحالٍ. وقد تمسك بهذا الحديث مَن فضل الملائكة على البشر. وقوله: (وإن دنوت مني شبرا دنوت منك ذراعا وإن دنوت مني ذراعا دنوت منك باعا وإن أتيتني تمشي أتيتك أهرول) يعني من دنا إلي وقرب مني بالاجتهاد والإخلاص في طاعتي قرَّبته بالهداية والتوفيق. وإن زاد زدتُ.

وقربُهُ –سبحانه-من خلقه أقسام ثلاثة:

قرب العامة وهو قرب العلم {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر: 19]. وقرب الخاصة وهو قرب الرحمة {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: 186]، {نَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: 56]. وقرب خاصة الخاصة وهو قرب الحفظ والرعاية {وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} [سبأ: 50] انتهى ([[100]](#footnote-100))

قلتُ وهي نفس أقسام معية الله تعالى. والله أعلم

وقد فسر قتادة-رحمه الله-وهو أحد رواة هذا الحديث تقرب الله تعالى إلى العبد بالمغفرة والرحمة. ([[101]](#footnote-101))

قال القرطبي-رحمه الله: وَأَصْلُ الذِّكْرِ التَّنَبُّهُ بِالْقَلْبِ لِلْمَذْكُورِ وَالتَّيَقُّظُ لَهُ. وَسُمِّيَ الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ ذِكْرًا لِأَنَّهُ دَلَالَةٌ عَلَى الذِّكْرِ الْقَلْبِيِّ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَ إِطْلَاقُ الذِّكْرِ عَلَى الْقَوْلِ اللِّسَانِيِّ صَارَ هُوَ السَّابِقَ لِلْفَهْمِ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: اذْكُرُونِي بِالطَّاعَةِ أَذْكُرْكُمْ بِالثَّوَابِ وَالْمَغْفِرَةِ، قَالَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. وقال أيضا: الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهَ وَإِنْ أَقَلَّ صَلَاتَهُ وَصَوْمَهُ وَصَنِيعَهُ لِلْخَيْرِ وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَقَدْ نَسِيَ اللَّهَ وَإِنْ كَثَّرَ صَلَاتَهُ وَصَوْمَهُ وَصَنِيعَهُ لِلْخَيْرِ)، ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ خُوَيْزِ مَنْدَادَ فِي" أَحْكَامِ الْقُرْآنِ" لَهُ. انتهى ([[102]](#footnote-102))

إنه ذلك الفضل الذي لا يصفه لفظ ولا يعبر عن شكره الحق إلا سجود القلب.

وذكر اللّه ليس لفظا باللسان وحسب، إنما هو انفعال القلب وشوقه، والشعور باللّه ووجوده والتأثر بهذا الشعور تأثرا ينتهي إلى الطاعة في حده الأدنى، وإلى رؤية اللّه وحده من وراء كل حركةٍ وكل فعلٍ وكل طاعة ...

ولذلك روى ابن كثيرٍ في إشارة لطيفةٍ لهذا المعنى عن مَكْحُولٍ الْأَزْدِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عُمَرَ-رضى الله عنهما-: أَرَأَيْتَ قَاتِلَ النَّفْسِ، وَشَارِبَ الْخَمْرِ وَالسَّارِقَ وَالزَّانِي يَذْكُرُ اللَّهَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}؟

قَالَ: إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ هَذَا ذَكَرَهُ اللَّهُ بِاللعنةِ حَتَّى يَسْكُتَ.

إن ادعاء الذكر واللهج به بلسانٍ زلقٍ على قلبٍ غافلٍ تملأه المعاصي هو استهزاءٌ من هذا المدعي يستوجب اللعنة التي ذكرها ابن عمرٍ رضى الله عنهما.

والذكر بهذا المعنى لفظٌ واسعٌ يشمل ذكر القلب وتقلبه في نعيم العبودية والإخلاص واللجأ إلى الله تعالى، وذكر اللسان الذي يرطب بتقديس الله ودعائه وحمده، وذكر الجوارح التي تنقاد إلى أمر الله تعالى طاعةً وبذلاً في سبيله.

الذكر معنىً كبيرٌ من معاني الارتباط بالله تعالى توحيداً واتجاهاً وركوناً إليه سبحانه.

قال ابن القيم رحمه الله:

(وَالذِّكْرُ مَنْشُورُ الْوِلَايَةِ الَّذِي مِنْ أُعْطِيَهُ اتَّصَلَ وَمَنْ مُنِعَهُ عُزِلَ، وَهُوَ قُوتُ قُلُوبِ الْقَوْمِ الَّذِي مَتَى فَارَقَهَا صَارَتِ الْأَجْسَادُ لَهَا قُبُورًا، وَعِمَارَةُ دِيَارِهِمُ الَّتِي إِذَا تَعَطَّلَتْ عَنْهُ صَارَتْ بُورًا، وَهُوَ سِلَاحُهُمُ الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ، وَمَاؤُهُمُ الَّذِي يُطْفِئُونَ بِهِ الْتِهَابَ الطَّرِيقِ وَدَوَاءُ أَسْقَامِهِمُ الَّذِي مَتَى فَارَقَهُمُ انْتَكَسَتْ مِنْهُمُ الْقُلُوبُ، وَالسَّبَبُ الْوَاصِلُ وَالْعَلَاقَةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَلَّامِ الْغُيُوبِ.

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوِينَا بِذِكْرِكُمُ ... فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ.

بِهِ يَسْتَدْفِعُونَ الْآفَاتِ وَيَسْتَكْشِفُونَ الْكُرُبَاتِ وَتَهُونُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْمُصِيبَاتُ، إِذَا أَظَلَّهُمُ الْبَلَاءُ فَإِلَيْهِ مَلْجَؤُهُمْ، وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ النَّوَازِلُ فَإِلَيْهِ مَفْزَعَهُمْ. فَهُوَ رِيَاضُ جَنَّتِهِمُ الَّتِي فِيهَا يَتَقَلَّبُونَ ورؤوس أَمْوَالِ سَعَادَتِهِمُ الَّتِي بِهَا يَتَّجِرُونَ. يَدَعُ الْقَلْبَ الْحَزِينَ ضَاحِكًا مَسْرُورًا، وَيُوصِّلُ الذَّاكِرَ إِلَى الْمَذْكُورِ، بَلْ يَدَعُ الذَّاكِرَ مَذْكُورًا.

وَفِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنَ الْجَوَارِحِ عُبُودِيَّةٌ مُؤَقَّتَةٌ، وَالذِّكْرُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَهِيَ غَيْرُ مُؤَقَّتَةٍ، بَلْ هُمْ مَأْمُورُونَ بِذِكْرِ مَعْبُودِهِمْ وَمَحْبُوبِهِمْ فِي كُلِّ حَالٍ: قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ. فَكَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ قِيعَانٌ وَهُوَ غِرَاسُهَا، فَكَذَلِكَ الْقُلُوبُ بُورٌ وَخَرَابٌ وَهُوَ عِمَارَتُهَا وَأَسَاسُهَا.

وَهُوَ جَلَاءُ الْقُلُوبِ وَصِقَالُهَا وَدَوَاؤُهَا إِذَا غَشِيَهَا اعْتِلَالُهَا، وَكُلَّمَا ازْدَادَ الذَّاكِرُ فِي ذِكْرِهِ اسْتِغْرَاقًا: ازْدَادَ الْمَذْكُورُ مَحَبَّةً إِلَى لِقَائِهِ وَاشْتِيَاقًا، وَإِذَا وَاطَأَ فِي ذِكْرِهِ قَلْبُهُ لِلِسَانِهِ: نَسِيَ فِي جَنْبِ ذِكْرِهِ كُلَّ شَيْءٍ وَحَفِظَ اللَّهُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ وَكَانَ لَهُ عِوَضًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَهُوَ بَابُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الْمَفْتُوحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يُغْلِقْهُ الْعَبْدُ بِغَفْلَتِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: تَفَقَّدُوا الْحَلَاوَةَ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: فِي الصَّلَاةِ وَفِي الذِّكْرِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنْ وَجَدْتُمْ وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْبَابَ مُغْلَقٌ). ([[103]](#footnote-103))

وفي الحديث أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُمِرَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يُبَلِّغَهُنَّ وَيُعَلِّمَهُنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَيَعْمَلَ بِهِنَّ، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ،...وفيه قال عليه السلام: وَآمُرُكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، فَإنَّ مَثَلَ ذِكْرِ اللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ انْطَلَقَ فَارًّا مِنَ الْعَدُوِّ وَهُمْ يَطْلُبُونَهُ حَتَّى لَجَأَ إِلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فأفْلَتَ مِنْهُمْ، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ لَا يُحْرِزُ مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ». ([[104]](#footnote-104))

(وفي الموطأ) قال مالك-رحمه الله-بسنده: «قال معاذ بن جبل: مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ مِنْ عَمَلٍ أَنْجَى لَهَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، مِنْ ذِكْرِ اللهِ».

(وفيه أيضا) قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: أَلاَ أَخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ لَكُمْ، أَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٍ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ، وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: ذِكْرُ اللهِ. ([[105]](#footnote-105)) والوَرِقُ هو الفِضَّة.

(وفيه) قال عيسى بن مريم صلى اللَّه على نبينا وعليه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد من اللَّه تعالى» رواه مالك بلاغاً. ([[106]](#footnote-106))

وفي الحديث (المُتَّفَقٌ عَلَيْهِ) عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: "وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ".

وروى أَبُو الدَّرْدَاءِ مرفوعا وموقوفا: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ وَمَا أَدَّى إِلَيْهِ، وَالْعَالِمُ، وَالْمُتَعَلِّمُ فِي الْخَيْرِ شَرِيكَانِ، وَسَائِرُ النَّاسِ هَمَجٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ» ([[107]](#footnote-107))

رَوَى ابْنُ مَاجَهْ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَنْبِئْنِي مِنْهَا بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: (لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ). ([[108]](#footnote-108))

وَخُرِّجَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ). ([[109]](#footnote-109))

كان هذا غيضاً من فيض الأحاديث التي تبين عظمة الذكر وأهميته في حياة المؤمن الذي يسير في الحياة كلها محاطا برعاية ربه يذكره في كل حينٍ يستعين به على ما ألمَّ به من خيرٍ او شرٍ ويسير على نور توفيقه الصادر من تفضله تعالى بذكر عباده الذاكرين له. ([[110]](#footnote-110))

ذكرُ الله تعالى هو رؤيته قبل كل حركةٍ وقبل كل فعلٍ. لأن عكس الذاكر الناسي الغافل الذي يتصرف وكأنه لا ربَّ له ولا إله يوجهه يأمره وينهاه.

وهذا بعينه أول الكفر؛ كفرٌ لنعم الله تعالى التي أنعم بها على عبده فصار يستعملها في مخالفة أمره.

لذلك عقَّب السياق الأمر بالذكر بأمر الشكر، ثم ألمح أنَّ النكوص عن الذكر والشكر هو في الحقيقة كفرٌ أو حتى أول الكفر.

\*\*\*\*\*\*

## «وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ».

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِشُكْرِهِ، وَوَعَدَ عباده عَلَى شُكْرِهِ بِمَزِيدِ الْخَيْرِ، فَقَالَ: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إِبْرَاهِيمَ: 7].

والشكر للّه درجاتٌ، تبدأ بالاعتراف بفضله والحياء من معصيته. وتنتهي بالتجرد لشكره والقصد إلى هذا الشكر في كل حركة بدن، وفي كل لفظة لسان، وفي كل خفقة قلب، وفي كل خطرة جنان.

والنهي عن الكفر هنا إلماعٌ إلى الغاية التي ينتهي إليها التقصير في الذكر والشكر وتحذير من النقطة البعيدة التي ينتهي إليها هذا الخط التعيس! والعياذ باللّه!

والشكرُ هو انفعالُ القلبٍ واللسانِ والجوارح اعترافاً بتفضل الله الكريم بكل النعم ظاهرةً وباطنةً، كبُرتْ أو دَقَّتْ.

هذا الانفعال يشبه ظهور أثر النعمة على المُنْعَم عليه.

(قَالَ الْفَرَّاءُ يُقَالُ: شَكَرْتُكَ وَشَكَرْتُ لَكَ، وَنَصَحْتُكَ وَنَصَحْتُ لَكَ، وَالْفَصِيحُ الْأَوَّلُ. وَالشُّكْرُ مَعْرِفَةُ الْإِحْسَانِ وَالتَّحَدُّثُ بِهِ، وَأَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ الظُّهُورُ). ([[111]](#footnote-111))

(يُقال شكرت الناقة إذا ظهر عليها السِمَن من أثر العلَف)

( فإن قيل: ما الفرق بين شكرتُ لزيدٍ، وشكرت زيداً؟

قيل: شكرت له هو أن يعتبر إحسانه الصادر عنه فيثنى عليه بذلك.

وشكرته: إذا لم تلتفت إلى فعله، بل تجاوزت إلى ذكر ذاته دون اعتبار أفعاله، فهو أبلغ من شكرت له، إذ قد يكون للإنسان فعل في الظاهر محمودٌ، ثم لا يكون ذلك الإنسان على الإطلاق محموداً.

(فجعل شكرتُهُ بمعنى حمدته، وفرَّق بينها وبين شكرتُ له)

وإنما قال تعالى: (واشكروا لي)، ولم يقل: (واشكروني) علماً بقصورهم عن إدراكه بل عن إدراك كل نعمه كما قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} فأمرهم أن يعدوا بعض أفعاله في الشكر له.

وشكر الله عز وجل-أصعبُ عبادةٍ وأشرفها، ولهذا قيل: غايةُ شكرِ الله الاعترافُ بالعجز عن وفاء شكره، فكلُّ نعمةٍ يمكن شكرها، فإن شكرها نعمةٌ منه، لأن ذكرها وشكرها هو بتوفيقه، وإن العبد-حينئذٍ-مُحتاجٌ أن يشكر نعمته الثانية بالشكر كشكره للأولى، وهدا يؤدي إلى مالا يتناهَى شكراً بشكرٍ، فلهذا قيل: لا يقدر عبدٌ على شكر الله تعالى.

قلتُ: ولهذا المعنى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخْطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفسك». رَوَاهُ مُسلم.

ولصعوبة الشكر قال: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}، فذكر ذلك بلفظِ القلة تنبيهاً على شرف هذه المنزلة وصعوبتها ...) ([[112]](#footnote-112))

وأىُّ شىءٍ أبلغ في وصف عظمة هذه الخُلَّةِ من أنَّ صاحبها يرضى الله تعالى عنه بشكره أكلةً وشَرْبة ماء!

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَعَنْ مَكْحُولٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر: 8]، قَالَ: بَارِدُ الشَّرَابِ، وَظِلُّ الْمَسَاكِينِ، وَشِبَعُ الْبُطُونِ، وَاعْتِدَالُ الْخَلْقِ.

يومئ إلى نعمٍ كثيرةٍ ربنا يستقلها الناس وهم مسؤولون عن شكرها لا ريب.

فالشكر للمؤمن منهج حياة. وكما حققنا في أول تفسير هذه السورة المباركة أنَّ من أهم مقاصد ومحاور سورة البقرة هى بناء الأمة المسلمة على منهجٍ قويمٍ وأساساتٍ متينة.

والذكر والشكر من أساسيات ارتباط المؤمن بنقائه الروحي الذي يعد أساسا لانطلاقه في الحياة.

(وَيُقَالُ: الشُّكْرُ عَلَى وَجْهَيْنِ: شُكْرٌ عَامٌّ، وَشُكْرٌ خَاصٌّ.

فَأَمَّا الشُّكْرُ الْعَامُّ فَهُوَ الْحَمْدُ بِاللِّسَانِ، وَأَنْ يَعْتَرِفَ بِالنِّعْمَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَأَمَّا الشُّكْرُ الْخَاصُّ، فَالْحَمْدُ بِاللِّسَانِ، وَالْمَعْرِفَةُ بِالْقَلْبِ، وَالْخِدْمَةُ بِالْأَرْكَانِ، وَحِفْظُ اللِّسَانِ، وَسَائِرِ الْجَوَارِحِ عَمَّا لَا يَحِلُّ.

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ: الشُّكْرُ الْعَمَلُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا} [سبأ: 13] يَعْنِي اعْمَلُوا عَمَلًا تُؤَدُّونَ بِهِ شُكْرًا.

وتَمَامُ الشُّكْرِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ:

أَوَّلُهَا: إِذَا أَعْطَاكَ اللَّهُ شَيْئًا، فتعرف الَّذِي أَعْطَاكَ فَتَحْمَدُهُ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: أَنْ تَرْضَى بِمَا أَعْطَاكَ.

وَالثَّالِثُ: مَا دَامَ مَنْفَعَةُ ذَلِكَ الشَّيْءِ مَعَكَ، وَقُوَّتُهُ فِي جَسَدِكَ لَا تَعْصِهِ.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , أَنَّهُ قَالَ: «خَصْلَتَانِ مَنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللَّهُ عِنْدَهُ شَاكِرًا صَابِرًا، إِحْدَاهُمَا أَنْ يَنْظُرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَيَقْتَدِي بِهِ، وَيَنْظُرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فَيَحْمَدَ اللَّهَ». ([[113]](#footnote-113))

(ومَنْزِلَةُ الشُّكْرِ مِنْ أَعْلَى الْمَنَازِلِ. وَهِيَ فَوْقَ مَنْزِلَةِ الرِّضَا وَزِيَادَةٌ. فَالرِّضَا مُنْدَرِجٌ فِي الشُّكْرِ. إِذْ يَسْتَحِيلُ وُجُودُ الشُّكْرِ بِدُونِهِ.

وَهُوَ نِصْفُ الْإِيمَانِ -كَمَا تَقَدَّمَ -وَالْإِيمَانُ نِصْفَانِ: نِصْفٌ شُكْرٌ. وَنِصْفٌ صَبْرٌ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ.

وَنَهَى عَنْ ضِدِّهِ، وَأَثْنَى عَلَى أَهْلِهِ. وَوَصَفَ بِهِ خَوَاصَّ خَلْقِهِ. وَجَعَلَهُ غَايَةَ خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ. وَوَعَدَ أَهْلَهُ بِأَحْسَنِ جَزَائِهِ.

وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ. وَحَارِسًا وَحَافِظًا لِنِعْمَتِهِ.

وَأَخْبَرَ أَنَّ أَهْلَهُ هُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِآيَاتِهِ. وَاشْتَقَّ لَهُمُ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ. فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الشَّكُورُ وَهُوَ يُوَصِلُ الشَّاكِرَ إِلَى مَشْكُورِهِ بَلْ يُعِيدُ الشَّاكِرَ مَشْكُورًا.

وَهُوَ غَايَةُ الرَّبِّ مِنْ عَبْدِهِ. وَأَهْلُهُ هُمُ الْقَلِيلُ مِنْ عِبَادِهِ...

{وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 78]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: 17]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: 144]

وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7] وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: 5]

وَسَمَّى نَفْسَهُ شَاكِرًا وَشَكُورًا وَسَمَّى الشَّاكِرِينَ بِهَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ. فَأَعْطَاهُمْ مِنْ وَصْفِهِ. وَسَمَّاهُمْ بِاسْمِهِ. وَحَسْبُكَ بِهَذَا مَحَبَّةً لِلشَّاكِرِينَ وَفَضْلًا.

وَإِعَادَتُهُ لِلشَّاكِرِ مَشْكُورًا. كَقَوْلِهِ: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} [الإنسان: 22] وَرِضَا الرَّبِّ عَنْ عَبْدِهِ بِهِ. كَقَوْلِهِ: {وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: 7] وَقِلَّةُ أَهْلِهِ فِي الْعَالَمِينَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هُمْ خَوَاصُّهُ. كَقَوْلِهِ: {وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: 13]

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَنَّهُ قَامَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ. فَقِيلَ لَهُ: تَفْعَلُ هَذَا وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟» .

«وَقَالَ لِمُعَاذٍ وَاللَّهِ يَا مُعَاذُ، إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَلَا تَنْسَ أَنْ تَقُولَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالتِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كَانَ يَدْعُو بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ. وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ. وَامَكْرُ لِي وَلَا تَمْكُرْ بِي. وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي. وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ. رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا لَكَ ذَكَّارًا لَكَ رَهَّابًا لَكَ مُطَاوِعًا لَكَ مُخْبِتًا إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا. رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي. وَاغْسِلْ حَوْبَتِي. وَأَجِبْ دَعْوَتِي. وَثَبِّتْ حُجَّتِي. وَاهْدِ قَلْبِي. وَسَدِّدْ لِسَانِي. وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي».

وَالشُّكْرُ مَبْنِيٌ عَلَى خَمْسِ قَوَاعِدَ: خُضُوعُ الشَّاكِرِ لِلْمَشْكُورِ. وَحُبُّهُ لَهُ. وَاعْتِرَافُهُ بِنِعْمَتِهِ. وَثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ بِهَا. وَأَنْ لَا يَسْتَعْمِلَهَا فِيمَا يَكْرَهُ.

فَهَذِهِ الْخَمْسُ: هِيَ أَسَاسُ الشُّكْرِ. وَبِنَاؤُهُ عَلَيْهَا. فَمَتَى عُدِمَ مِنْهَا وَاحِدَةً: اخْتَلَّ مِنْ قَوَاعِدِ الشُّكْرِ قَاعِدَةٌ.

وَكُلُّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الشُّكْرِ وَحْدَهُ، فَكَلَامُهُ إِلَيْهَا يَرْجِعُ. وَعَلَيْهَا يَدُورُ.

وَقَالَ الْجُنَيْدُ -وَقَدْ سَأَلَهُ سَرِيٌّ عَنِ الشُّكْرِ، وَهُوَ صَبِيٌّ -الشُّكْرُ: أَنْ لَا يُسْتَعَانَ بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى مَعَاصِيهِ. فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ مُجَالَسَتِكَ.

وَالشُّكْرُ مَعَهُ الْمَزِيدُ أَبَدًا. لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: 7] فَمَتَى لَمْ تَرَ حَالَكَ فِي مَزِيدٍ. فَاسْتَقْبِلِ الشُّكْرَ.

وَقِيلَ: مَنْ كَتَمَ النِّعْمَةَ فَقَدْ كَفَرَهَا. وَمَنْ أَظْهَرَهَا وَنَشَرَهَا فَقَدْ شَكَرَهَا.

وَهَذَا مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ أَحَبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ».

وَفِي هَذَا قِيلَ:

وَمِنَ الرَّزِيَّةِ أَنَّ شُكْرِيَ صَامِتٌ ... عَمَّا فَعَلْتَ وَأَنَّ بِرَّكَ نَاطِقُ

وَأَرَى الصَّنِيعَةَ مِنْكَ ثُمَّ أُسِرُّهَا ... إِنِّي إِذًا لِنَدَى الْكَرِيمِ لَسَارِقُ.... ([[114]](#footnote-114))

وبمنزلة الشكر ومكانته نختتم جزءنا هذا. راجين أن يتم الله نعمته علينا وينفعنا بما علمنا.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

والحمد لله رب العالمين

انتهيت من تبييضه صبحة يوم الإثنين الموافق 5 جمادى الأولى 1439ه

22/1/2018م.

أبو عمر د. محمد عبد المعطي محمد

# فهرس المحتويات

[مقدمة 4](#_Toc504423021)

[في هذا السفر نطالع. 8](#_Toc504423022)

[تفسير الآيات من الآية ( 135-141) 9](#_Toc504423023)

[{قولوا آمنا بالله...} 14](#_Toc504423024)

[قوله تعالى:{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فقد اهتدوا} 19](#_Toc504423025)

[قوله تعالى: {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمنْ أَحْسنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنحْن لَهُ عَابِدُونَ}. 23](#_Toc504423026)

[قال تعالى: {قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139)} 27](#_Toc504423027)

[قوله تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140)}. 29](#_Toc504423028)

[قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)}. 31](#_Toc504423029)

[تفسير الآيات من (142-152). 32](#_Toc504423030)

[{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ...} 35](#_Toc504423031)

[أمة الوسط. 45](#_Toc504423032)

[اختبار أهل الإيمان وتمييز أهل النفاق... 54](#_Toc504423033)

[قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} 58](#_Toc504423034)

[ومن نكت العقيدة 58](#_Toc504423035)

[{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...} 61](#_Toc504423036)

[لطيفةٌ فقهية 66](#_Toc504423037)

[شخصية المسلمين وهويتهم= قبلتهم. 68](#_Toc504423038)

[{يعرفونه كما يعرفون أبناءهم} 77](#_Toc504423039)

[{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا} 83](#_Toc504423040)

[نعمةٌ وتذكيرٌ. 90](#_Toc504423041)

[الذكر والشكر وجذورهما في قضية الإيمان. 94](#_Toc504423042)

[{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 152] 94](#_Toc504423043)

[«وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ». 100](#_Toc504423044)

[فهرس المحتويات 107](#_Toc504423045)

1. في ظلال القرآن لسيد قطب3\1399. [↑](#footnote-ref-1)
2. أخرجه أَبُو دَاوُد: أدب 11، وَالتِّرْمِذِيّ: بر 35، وَأحمد: 3/ 258 و295 و303 و461 و493 و3/ 32 و74، وَالنَّظَر صَحِيح الْجَامِع للألباني رقم7719، وسلسلة الصَّحِيحَيْنِ 416 عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا.

   قال الإمام الخطابي في معالم السنن (4/ 113): هذا الكلام يُتأوَّل على وجهين:

   أحدهما: أن من كان طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله وترك الشكر له سبحانه.

   والوجه الاخر: أن الله سبحانه لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر. [↑](#footnote-ref-2)
3. قال محمد بن إسحاق: بسنده-قال ابن عباس: نزلت في رؤوس يهود المدينة: كعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى أهل نجران، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين؛ كل فرقةٍ تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها، فقالت اليهود: نبينا أفضل الأنبياء، وكتابنا أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وقالت النصارى مثل ذلك. يقولون للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك.انظر تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 448) وأسباب النزول للنيسابوري صـ 43. [↑](#footnote-ref-3)
4. نقلا عن حصان طروادة الغارة الفكرية على الديار السنية -د. عمرو كامل عمر – المقدمة-وهو كتاب رائع في بابه. [↑](#footnote-ref-4)
5. انظر تفسير المنار (1/ 395) بشرح وتصرف. [↑](#footnote-ref-5)
6. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 70) باختصار. [↑](#footnote-ref-6)
7. في ظلال القرآن (1/ 117) [↑](#footnote-ref-7)
8. من بحث قيم للمرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز موضوعه (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) نشر بمجلة لواء الإسلام العدد 11 السنة 11 ص 68، وكان فضيلته قد أعد هذا البحث لإلقائه في الندوة العالمية للإسلاميات، التي انعقدت في لاهور في أواخر سنة 1957، إلا أن المنية عاجلته قبل الانتهاء من الندوة-فرحمة الله عليه ورضوانه. [↑](#footnote-ref-8)
9. التفسير الوسيط لطنطاوي (1/ 284) [↑](#footnote-ref-9)
10. هذا السياق تبينه آيات سورة آل عمران بمزيد التفصيل في قوله تعالى: { قُلْ يَا َهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) يَا أ َهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ } [آل عمران: 64 - 68] [↑](#footnote-ref-10)
11. كما قال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: 31] [↑](#footnote-ref-11)
12. كما قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ} [البقرة: 113]. [↑](#footnote-ref-12)
13. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ-للسمين الحلبي (2/ 318) [↑](#footnote-ref-13)
14. ونقل ذلك ابن عبد البر. وقد جاء في الحديث عن عياضِ بنِ حمارٍ المجاشعيِّ، أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ يوماً: " ألا أُحدِّثكم بما حدَّثني اللهُ جلَّ وعزَّ بِه في الكتابِ! إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ آدمَ وبَنيهِ حُنفاءَ مُسلمينَ، فأَعطاهُم المالَ حلالاً لا حرامَ فيهِ وعَبَدوا الطواغيتَ، فأَمرني أنْ آتيَهم فأُبينَ لهم الذي جبَلَهم عليهِ،" (رواه الطبراني وابن عساكر) [↑](#footnote-ref-14)
15. وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا الحديث كما في "الفتاوى" 4/ 245 فأجاب: الحمد لله أما قوله: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" فالصواب أنها فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي فطرة الإِسلام، وهي الفطرة التي فطرهم عليها يوم قال: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى} [الأعراف: 172] وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة فإن حقيقة الإِسلام أن يستسلم لله، لا لغيره، وهو معنى لا إله إلا الله، وقد ضرب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-مثل ذلك.

    فقال: كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء (أى: سالمة من العيوب في جميع أعضائها) بين أن سلامة القلب من النقص كسلامة البدن، وأن العيب حادث طارئ، ثم ذكر حديث عياض عند مسلم (2865) ... وانظر تتمة كلامه فإنه غاية في النفاسة والتحقيق. [↑](#footnote-ref-15)
16. عندما وصل الإسلام إلى أستراليا- جاناك روجر بي بي سي 26 يونيو/ حزيران 2014 <http://www.bbc.com/arabic/artandculture/2014/06/140625_australia_islam_influence>

    وفي الحقيقة دعك من التلفيق الذي حاوله بعض العلماء بجعل هذه الآثار الواضحة للإسلام في سكان استراليا الأصليين هي نتاج زيارات أهل مكاسارو الاندونيسية المتكررة لأستراليا في زمن سابق فهذا ليس عليه دليل أنه سبب هذه الطقوس الإسلامية، فتنبه. [↑](#footnote-ref-16)
17. تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن (1/ 325) [↑](#footnote-ref-17)
18. جاء في تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 76): اخْتَلَفُوا فِي تِلْكَ الْمُحَاجَّةِ وَذَكَرُوا وُجُوهًا:

    أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَوْلَهُمْ إِنَّهُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ وَالنُّبُوَّةِ لِتَقَدُّمِ النُّبُوَّةِ فِيهِمْ وَالْمَعْنَى: أَتُجَادِلُونَنَا فِي أن الله اصطفى رسول مِنَ الْعَرَبِ لَا مِنْكُمْ وَتَقُولُونَ: لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَحَدٍ لَأَنْزَلَ عَلَيْكُمْ، وَتَرَوْنَكُمْ أَحَقَّ بِالنُّبُوَّةِ مِنَّا

    . وَثَانِيهَا: قَوْلُهُمْ: نَحْنُ أَحَقُّ بِالْإِيمَانِ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ عَبَدُوا الْأَوْثَانَ.

    وَثَالِثُهَا: قَوْلُهُمْ نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ وَقَوْلُهُمْ: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى [الْبَقَرَةِ: 111] وَقَوْلُهُمْ: كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا [البقرة: 135] عَنِ الْحَسَنِ.

    وَرَابِعُهَا: أَتُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ أَيْ: أَتُحَاجُّونَنَا فِي دِينِ اللَّهِ. [↑](#footnote-ref-18)
19. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 197) [↑](#footnote-ref-19)
20. تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 76) [↑](#footnote-ref-20)
21. تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 325) [↑](#footnote-ref-21)
22. فيكون ذلك معطوفًا على قوله تعالى: "أتحاجوننا في الله". وتكون "أم" متصلة. أي تكون (أم) معادلة للهمزة في: (أَتُحَاجُّونَنا) بمعنى أىّ الأمرين تأتون: ألمحاجة في حكمة اللَّه أم ادّعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء؟ والمراد بالاستفهام عنهما إنكارهما معاً، ويحتمل أن تكون (أم) منقطعة لاستئناف الاستفهام بمعنى: بل أتقولون، والهمزة للإنكار أيضا. وهذه القراءة بالتاء من فوق قرأها ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم «أم يقولون» بالياء من أسفل، و(أَمْ) على هذه القراءة لا تكون إلا منقطعة، ذكره الطبري والزمخشري، وحكي عن بعض النحاة أنها ليست بمقطوعة لأنك إذا قلت أتقوم أم يقوم عمرو؟ فالمعنى أيكون هذا أم هذا؟ وقد فصَّل ابن عطية الأندلسي في ذلك فانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 216). [↑](#footnote-ref-22)
23. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 122) باختصار وتصرف [↑](#footnote-ref-23)
24. معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 217) [↑](#footnote-ref-24)
25. تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 327) بتصرف. [↑](#footnote-ref-25)
26. الأساس في التفسير (1/ 298) بتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-26)
27. صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان رقم 40 تحقيق وتعليق مصطفى البغا (بين القوسين الدائرين)، وكذلك رواه مسلم في الصلاة باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة رقم 525. [↑](#footnote-ref-27)
28. وبيان ذلك أن العلماء اختلفوا في الجهة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوجه إليها للصلاة وهو بمكة، فقال بن عباس وغيره: كان يصلي إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس.

    وأطلق آخرون أنه كان يصلي إلى بيت المقدس.

    وقال آخرون: كان يصلي إلى الكعبة فلما تحول إلى المدينة استقبل بيت المقدس، وهذا ضعيف ويلزم منه دعوى النسخ مرتين.

    والأول أصح لأنه يجمع بين القولين، وقد صححه الحاكم وغيره من حديث بن عباس.

    وكان تحويل القبلة في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح وبه جزم الجمهور ورواه الحاكم بسند صحيح عن بن عباس.انظر فتح الباري لابن حجر (1/ 96،97) [↑](#footnote-ref-28)
29. مختصر تفسير ابن كثير لمحمد على الصابوني (1/ 135) [↑](#footnote-ref-29)
30. أحكام القرآن للكيا الهراسي (1/ 20). وجاء في بحث ماتع بعنوان حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام -للباحثة فرحانة بنت علي شويتة (ص: 61) نتائج مهمة وهي: -

    أولا: أن الخلاف في إفادة خبر الآحاد العلم أو الظن خلافٌ لفظيٌ؛ لأن الذين يقولون إن خبر الآحاد يفيد الظن يقولون بوجوب العمل به فكيف يتصور العمل بدون علم؟ فالعمل فرع تصور العلم.

    ثانياً: أن تخصيص الاحتجاج بأخبار الآحاد في الأحكام دون العقائد تخصيص بدون مخصص ولا أصل له يعتمد عليه ولا سند له.

    ثالثاً: أن الاحتجاج بأخبار الآحاد في العقائد يؤكد وحدة الاحتجاج بالسنة، كما يؤكد استمرار منهج السلف في عدم التفريق بين ما رواه الواحد والاثنان وما رواه الجماعة في العقيدة والشريعة سواء بسواء.

    رابعاً: لا يظن ظان أن الأصوليين كلّهم رفضوا الاحتجاج بخبر الآحاد في العقائد؛ بل من الأصوليين المنصفين من ذهبوا إلى الاحتجاج بخبر الآحاد في العقائد.

    خامساً: حجية أخبار الآحاد ثابتة على الأحكام كافة.

    سادساً: أن خبر الواحد العدل الصحيح لا يقوم على شيء، ولا يعارض بآراء الناس ولا يجوز أن يرد بما اشترطه الناس من شروط ليست في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ولاهي مما أجمع عليه علماء الحديث.

    سابعاً: منهج الصحابة والتابعين وأئمة السنة بعدهم الاحتجاج بالأحاديث في أمور الدين دون تمييز بين متواترها وآحادها. [↑](#footnote-ref-30)
31. الرحيق المختوم (ص: 183) [↑](#footnote-ref-31)
32. )) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمه الله، ج 1 ، ص : 126 [↑](#footnote-ref-32)
33. السين حرف يختص بالمضارع ويخلصه للاستقبال وينزل منه منزلة الجزء فلذا لم تعمل فيه. وذهب البصريون إلى أن مدة الاستقبال معه أضيق منها مع سوف وعبارة المعربين: حرف تنفيس ومعناها حرف توسع لأنها نقلت المضارع من الزمن الضيق -وهو الحال -إلى الزمن الواسع وهو الاستقبال. انتهى من الإتقان في علوم القرآن (2/ 233) [↑](#footnote-ref-33)
34. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (2/ 201) باختصار. [↑](#footnote-ref-34)
35. انظر فتح الباري لابن حجر (8/ 171) [↑](#footnote-ref-35)
36. انظر تفسير الألوسي = روح المعاني (1/ 402) بتصرف واختصار. [↑](#footnote-ref-36)
37. قال السيوطي في الإتقان (2/ 233): وذكر بعضهم أنها قد تأتي للاستمرار لا للاستقبال، كقوله تعالى: {ستجدون آخرين} الآية، {سيقول السفهاء} الآية، لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم: {ما ولاهم} فجاءت السين إعلاما بالاستمرار لا للاستقبال.

    قال ابن هشام: وهذا لا يعرفه النحويون بل الاستمرار مستفاد من المضارع والسين باقية على الاستقبال إذ الاستمرار إنما يكون في المستقبل.انتهى [↑](#footnote-ref-37)
38. القِبلة: الوجهة، وهي الفعلة من المقابلة، والعرب تقول: ماله قِبلة ولا دِبرة، إذا لم يهتد لجهة أمره، وأصل القبلة في اللغة: الحالة التي يقابل الشيء غيره عليها، كالجلسة للحال التي يجلس عليها، إلا أنها الآن صارت كالعلم للجهة التي تستقبل في الصلاة. انظر التفسير البسيط (3/ 368) [↑](#footnote-ref-38)
39. راجع مختصر تفسير ابن كثير للصابوني (1/ 135).

    وجاء في تفسير الماتريدي: قل يا مُحَمَّد: لله المشرق والمغرب والأمكنة كلها والنواحي، يأمر بالتوجه إلى أي ناحية شاء شرقًا وغربًا، فالطاعة له في الائتمار لأمره، والقبول لدعائه، لا للتوجه نحو الشرق أو نحو الغرب لِهَوى هووا ولتمنٍّ تمنوا؛ لأن اليهود جعلوا قبلتهم المغرب اتباعًا لهواهم، لا اتباعًا لأمر أمروا به.

    وكذلك النصارى اتخذوا المشرق قبلة لهوى أنفسهم؛ فأخبر اللَّه تعالى المؤمنين أنهم يأتمرون باللَّه حيث ما أمروا توجهوا نحوه.

    انظر تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (1/ 582) [↑](#footnote-ref-39)
40. زهرة التفاسير للشيخ محمد أبي زهرة-رحمه الله(1/ 434) [↑](#footnote-ref-40)
41. راجع هذا الموضع مشكورا في الجزء الثالث من سلسلتنا. [↑](#footnote-ref-41)
42. التفسير القرآني للقرآن (1/ 164) [↑](#footnote-ref-42)
43. تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 219) [↑](#footnote-ref-43)
44. )) رواه أحمد (36/ 623 رقم 22291)، والطبراني في "الكبير" (8/ 216 رقم 7868)، والخطيب في "الفقيه والمتفقه" (2/ 430 رقم 1218)، وابن عساكر في "الأربعون في الحث على الجهاد" (77 رقم 15) وإسناده ضعيف؛ فيه: علي بن يزيد الألهاني، ومعان بن رفاعة. لكن الحديث له شواهد يرتقي بها إلى الحسن. ولذلك ذكره الألباني -رحمه الله- في "الصحيحة" (6/ 2 / 1022 رقم 2924). [↑](#footnote-ref-44)
45. )) فى ظلال القرآن(1/238) ـ [↑](#footnote-ref-45)
46. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 464) [↑](#footnote-ref-46)
47. تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 145) [↑](#footnote-ref-47)
48. انظر فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (3/ 133) [↑](#footnote-ref-48)
49. تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: 71) [↑](#footnote-ref-49)
50. )) في ظلال القرآن ، ج 1 ، ص : 127 [↑](#footnote-ref-50)
51. وتحقيقه ما ذكره الزجاج: أن الله عز وجل يعلم من يتبع الرسول ممن لا يتبع قبل وقوعه، وذلك العلم لا يوجب مجازاة في ثواب ولا عقاب، ولكن المعنى: ليعلم ذلك منهم شهادة، فيقع عليهم بذلك العلم اسم المطيعين واسم العاصين، فيتعين ثوابهم على قدر عملهم، وتكون معلومة في حال وقوع الفعل منهم شهادة، كقوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) [التغابن: 18]، فعلمه به قبل وقوعه غيب، وعلمه به حال وقوعه شهادة، وهذا يبين كل ما في القرآن مثله. انظر فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (3/ 137).

    ولابن عطية الأندلسي رأى بعيد ينقل الكلام إلى المجاز يقول فيه: ومعنى قوله تعالى: لِنَعْلَمَ أي ليعلم رسولي والمؤمنون به، وجاء الإسناد بنون العظمة إذ هم حزبه وخالصته، وهذا شائع في كلام العرب كما تقول: فتح عمر العراق وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه، فهذا وجه التجوز إذا ورد علم الله تعالى بلفظ استقبال لأنه قديم لم يزل. انتهى انظر تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 220) [↑](#footnote-ref-51)
52. تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 219). [↑](#footnote-ref-52)
53. و(إنْ) هنا هي المخففة من (إنَّ) الثقيلة يدل على ذلك لام التأكيد اللاحقة بخبرها (التي يسمونها في النحو المُزَحْلقة). قال الزجاج: وهذه اللام دخلت على " إِنْ " لأن اللام إِذا لم تدخل مع إِنْ الخفيفة كان الكلام جُحْداً (أى نفياً) فلولا " اللام " كان المعنى " ما كانت كبيرة " فإِذا جاءَت إِن واللام فمعناه التوكيد للقصة، واللام تدخل في الخبر. انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 220). [↑](#footnote-ref-53)
54. )) هكذا حكاه الثعلبي في تفسيره بغير إسناد. [↑](#footnote-ref-54)
55. شرح صحيح البخارى لابن بطال (1/ 97) [↑](#footnote-ref-55)
56. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (9/ 244) بتصرف يسير [↑](#footnote-ref-56)
57. )) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

    ومعنى الحديث: أن الله سبحانه وتعالى خص نبيه من بين سائر المؤمنين بأن أي امرأة وهبت نفسها له فله أن ينكحها. فعند نزول الآية المذكورة قالت عائشة: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. ومعناه كما قال ابن حجر: (أي ما أرى الله إلا موجداً لما تريد بلا تأخير، منزلا لما تحب وتختار. وقال القرطبي: هذا قول أبرزه الدلال والغيرة، وهو من نوع قولها: ما أحمدكما ولا أحمد إلا الله. وإضافة الهوى إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يحمل على ظاهره لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يفعل بالهوى، ولو قالت إلى مرضاتك لكان أليق، ولكن الغيرة يغتفر لأجلها إطلاق مثل ذلك.

    وهذا الحديث دليل على عفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم شهوانيته، لأن الله أباح له أي امرأة تهب نفسها له، وجاءه كثير من النساء وعرضن أنفسهن عليه وردهن، فقد أخرج الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له. قال ابن حجر في الفتح: وإسناده حسن، والمراد أنه لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان مباحاً له، لأنه راجع إلى إرادته لقوله تعالى (إن أراد النبي أن يستنكحها). انتهى. [↑](#footnote-ref-57)
58. )) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (2/ 377) مع زيادة. [↑](#footnote-ref-58)
59. )) وقال أبو حيان « في تفسيره البحر المحيط (1/ 427) » :

    بل التكثير مستفادٌ من لفظ التقلّب، ومَن نظر مرة أو ردد بصره مرتين أو ثلاثا لا يُقال: إنه قلَّب بصره، فلا يقال قلّب إلا حيث الترديد كثيرٌ. و (نرى) هنا بمعنى الماضي، وقد ذكر بعض النحاة أن (قد) تقلب المضارع ماضيا، ومنه ما هنا، ومنه قوله تعالى:

    {قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ} [النور: 64]، {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ} [الحجر: 97]، {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ} [الأحزاب: 18] والمعنى قد رأينا إلخ. انتهى

    إذن (قد) حرف يأتي في اللغة العربية يسبق الأفعال. فإذا انضم مع الفعل الماضي فهو يعني التأكيد، وإذا كان مع الفعل المضارع فهو يعني التردد والشك. فيقولون: قد مضيتُ ومعناه أؤكد أني مضيتُ، ويقولون: قد أمضي ومعناه: ربما أمضي لست متأكدا. ولكن العرب احيانا حينما تريد ان تعبر عن تكرار حالٍ وتردده تأتي بقد مع الفعل المضارع كما في هذه الآية. وهذا من توسع العرب في بلاغتها. [↑](#footnote-ref-59)
60. )) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 201) مع حاشية أحمد السكندري. [↑](#footnote-ref-60)
61. )) قال عبد الكريم القشيري:

    حفظ- صلوات الله عليه- الآداب حيث سكت بلسانه عن سؤال ما تمنّاه من أمر القبلة بقلبه، فلاحظ السماء لأنها طريق جبريل عليه السّلام، فأنزل الله عزّ وجل: «قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ» أي علمنا سؤلك عمّا لم تفصح عنه بلسان الدعاء، فلقد غيّرنا القبلة لأجلك، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب. كلّ العبيد يجتهدون فى طلب رضائى وأنا أطلب رضاك. انتهى

    لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 134) [↑](#footnote-ref-61)
62. )) راجع فتح القدير للشوكاني (1/ 177) مع تصرف. ومن معاني الشَّطْرِ في اللغة العربية: النِّصْفُ، وَمِنْهُ «الطّهور شَطْرُ الْإِيمَانِ» ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَنْتَرَةَ: إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِبًا ... شَطْرِي وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمُنْصُلِ.

    قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّ أَبَاهُ مِنْ سَادَاتِ عَبْسٍ وَأُمَّهُ أَمَةٌ، وَيَرِدُ بِمَعْنَى الْبَعْضِ مُطْلَقًا. وَلَا خِلَافَ أَنَّ الْمُرَادَ بِشَطْرِ الْمَسْجِدِ هُنَا: ناحية الْكَعْبَةُ. [↑](#footnote-ref-62)
63. )) تفسير آيات الأحكام للسايس (ص: 41) [↑](#footnote-ref-63)
64. )) نقلا عن التحرير والتنوير (2/ 13).

    مسألة: وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية لقوله: {فول وجهك شطر المسجد الحرام} فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام. وقال بعضهم: ينظر المصلي في قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع وآكد في الخشوع وقد ورد به الحديث، وأما في حال ركوعه فإلى موضع قدميه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه وفي حال قعوده إلى حجره. انتهى من تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 461) [↑](#footnote-ref-64)
65. )) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الكعبة والتحول عن بيت المقدس لوجوه ثلاثة رويت، فقال مجاهد: لقول اليهود ما علم محمد دينه حتى اتبعنا، وقال ابن عباس: وليصيب قبلة إبراهيم عليه السلام، وقال الربيع والسدي: وليستألف العرب لمحبتها في الكعبة. انتهى من تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 221) [↑](#footnote-ref-65)
66. )) الرحيق المختوم (ص: 128) [↑](#footnote-ref-66)
67. )) الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن (1/228 وما بعدها) بتصرف واختصار. [↑](#footnote-ref-67)
68. () القذة: بالضم: ريشة السهم. وقوله: "حذو القذة بالقذة". كناية عن التشابه والتتابع، ويضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان لسان العرب (4 / 503) قذذ. [↑](#footnote-ref-68)
69. صحيح لغيره. جاء ذلك في حديث أخرجه الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلي الله عليه وعلى آله وسلم قال: "إن الله لا يجمع أمتي - أو قال: أمة محمد صلي الله عليه وعلى آله وسلم - على ضلالة، ويد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ في النار". أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة الحديث رقم (2167) ، (4 / 466) ، وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه"، وللحديث شواهد في مستدرك الحاكم (1 / 115 - 116) ؛ والسنة لابن أبي عاصم، الأحاديث رقم (80، 82، 83، 84، 85) ، (ص 39، 41، 42) ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير وزاد فيه: "ويد الله على الجماعة ومن شذ شذ إلى النار"، وقال: "حديث حسن" الجامع الصغير (1 / 278) رقم (1818) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته رقم (1844) ، وله شاهد أيضا في المسند (5 / 145) ، عن أبي ذر ومنه: "فإن الله عز وجل لن يجمع أمتي إلا على هدى"، وفي سنن الدارمي (1 / 29) في المقدمة، باب ما أعطى النبي صلي الله عليه وعلى آله وسلم من الفضل وفيه: "ولا يجمعهم على ضلالة". نصا من تحقيق الشيخ ناصر العقل على كتاب اقتضاء الصراط المستقيم. [↑](#footnote-ref-69)
70. صحيح الإسناد. قال العلامة البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (1/ 5): هَذَا إِسْنَاد صَحِيح عن أبي عنبة الخولاني رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم رِجَاله كلهم ثِقَات وَقد توبع هِشَام عَلَيْهِ وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه من طَرِيق الْهَيْثَم بن خَارجه عَن الْجراح بِهِ. قلت: وكذا رواه أحمد في مسند أبي عنبة الخولاني، ورواه البخاري في الكنى (61)، عن الهيثم به. وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها للألباني (5/ 571) برقم (2442). [↑](#footnote-ref-70)
71. شيخ الإسلام أحمد عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله تعالى-(اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 74-79) باختصار. [↑](#footnote-ref-71)
72. )) في ظلال القرآن 1/ 245،246. [↑](#footnote-ref-72)
73. )) التفسير القرآني للقرآن (1/ 170) عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد 1390هـ)- دار الفكر العربي - القاهرة [↑](#footnote-ref-73)
74. )) في ظلال القرآن 1/247 [↑](#footnote-ref-74)
75. )) ورجَّح فخر الدين الرازي هذا القول لأسبابٍ ذكرها في تفسيره. [↑](#footnote-ref-75)
76. )) انظر تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 204)، وتفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (4/ 110) [↑](#footnote-ref-76)
77. )) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (1/ 223) [↑](#footnote-ref-77)
78. )) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 187) وربما لم ينقل غيره ابن جرير الطبري لأن خبر عبد الله ابن سلام مع عمر إنما نقله محمد بن السائب الكلبي وهو متروك عند المحدثين. وللفائدة قال فيه ابن الجوزي في كتابه الضعفاء والمتروكون: مُحَمَّد بن السَّائِب بن بشير أَبُو النَّضر الْكَلْبِيّ الْكُوفِي قَالَ زَائِدَة وَلَيْث وَسليمَان التَّيْمِيّ هُوَ كَذَّاب وَقَالَ السَّعْدِيّ كَذَّاب سَاقِط وَقَالَ يحيى لَيْسَ بِشَيْء كَذَّاب سَاقِط وَقَالَ النَّسَائِيّ وَعلي بن الْجُنَيْد وَالدَّارَقُطْنِيّ مَتْرُوك الحَدِيث وَقَالَ ابْن حبَان وضوح الْكَذِب فِيهِ أظهر من ان يحتاح إِلَى الإغراق فِي وَصفه روى عَن أبي صَالح عَن ابْن عَبَّاس التَّفْسِير وَأَبُو صَالح لم ير ابْن عَبَّاس وَلَا سمع مِنْهُ و لَا يحل الِاحْتِجَاج بِهِ. [↑](#footnote-ref-78)
79. )) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (1/ 135) [↑](#footnote-ref-79)
80. )) راجع تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (1/ 205) بتصرف. وذلك هو تأثير الإعراب والتركيب النحوي- الذي قصده عبد القاهر الجرجاني في نظريته عن النظم- في توجيه المعاني.

    [↑](#footnote-ref-80)
81. المفردات في غريب القرآن (ص: 766) [↑](#footnote-ref-81)
82. )) في ظلال القرآن 1/248. [↑](#footnote-ref-82)
83. )) من تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 192) مختصرا. [↑](#footnote-ref-83)
84. تفسير القرطبي (6/ 211) [↑](#footnote-ref-84)
85. )) تفسير ابن عرفة (2/ 463) وكذا أفاده الراغب الأصفهاني في تفسيره. [↑](#footnote-ref-85)
86. )) راجع في ظلال القرآن (1/229- 234). [↑](#footnote-ref-86)
87. )) المصدر السابق (1/234). [↑](#footnote-ref-87)
88. )) التفسير القرآني للقرآن (1/ 172) [↑](#footnote-ref-88)
89. )) تيسير التفسير للقطان (1/ 79، بترقيم الشاملة آليا) [↑](#footnote-ref-89)
90. )) في ظلال القرآن 1/249. [↑](#footnote-ref-90)
91. )) أيسر التفاسير للجزائري (1/ 131) [↑](#footnote-ref-91)
92. )) في ظلال القرآن 1/249. [↑](#footnote-ref-92)
93. )) نفس المصدر 1/252. [↑](#footnote-ref-93)
94. )) الكاف حرفٌ من حروف المعاني = التي لها معاني في ذاتها[= كلمة وظيفيَّة]، وَتَكون جَارةً لما بعدها، وَغير جَارة، ولها معانٍ:

    1 -حرف جرّ يفيد التَّشبيه "تصرّف كما يجب-هو كالحديد صلابة- {كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ} ".

    2 -حرف جرّ زائد، يفيد التوكيد "أنا كباحث أقرّ هذا الرأي- {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: التقدير: ليس شيء مثله".

    3 -حرف جرّ يفيد التعليل " {وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ}: لهدايته إيَّاكم".

    4 -حرف جرّ بمعنى (على) يفيد الاستعلاء "كن كما أنت: كن على الحال الذي أنت عليه".

    5 -حرف خطاب يلحق اسمَ الإشارة مثل (ذاك، ذلك، تلك) والضمير المنفصل مثل (إيّاكَ، إيّاكِ)، وبعض أسماء الأفعال مثل (رويدك) "رويدك يا عمر-{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ} - {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ".

    6-ضمير مَنْصُوب أَو مجرور نَحْو {مَا وَدعك رَبك} فالكاف الأولى في محل نصب مفعول به، والثانية في محل خفض مضاف إليه.

    انظر معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 1887) والمعجم الوسيط (2/ 771) [↑](#footnote-ref-94)
95. )) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 208) [↑](#footnote-ref-95)
96. )) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (1/ 227) [↑](#footnote-ref-96)
97. )) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (3/ 209) [↑](#footnote-ref-97)
98. )) في ظلال القرآن 1/254 بتصرف يسير. [↑](#footnote-ref-98)
99. )) حديثٌ قدسي صحيح رواه الإمام أحمد في المسند والإمام البخاري في الصحيح عن أنس رضى الله عنه. [↑](#footnote-ref-99)
100. )) فيض القدير للعلامة المناوي (4/ 495) باختصار وتصرف.

     قال النووي-رحمه الله-: وهذا الحديث من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره.

     قال: ومعناه من تقرب إلى بطاعتي تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة، وإن زاد زادت، فإن أتاني يمشي أتيته هرولة، أي صببت عليه الرحمة وسبقته بها ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود، والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه. والله أعلم. [↑](#footnote-ref-100)
101. )) وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ-رحمه الله-: {اذْكُرُونِي} بِطَاعَتِي {أَذْكُرْكُمْ} بِمَغْفِرَتِي، ورَحْمَتِي.راجع تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 464) [↑](#footnote-ref-101)
102. )) تفسير القرطبي (2/ 171) [↑](#footnote-ref-102)
103. )) انظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 395). [↑](#footnote-ref-103)
104. )) قال الشيخ الألباني (صحيح) ... روا أحمد والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وغيرهم عن الحارث ابن الحارث الأشعري.انظر صحيح الجامع 1725، صحيح الترغيب 553، المشكاة 3694. [↑](#footnote-ref-104)
105. )) صحيح. رَوَاهُ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ إِلَّا أَنَّ مَالِكًا وَقفه على أبي الدَّرْدَاء، وصححه الشيخ الألباني في تحقيق المشكاة 2269. وتخريج الترغيب 1493. وصحيح الجامع 2629. وصحيح الترمذي 3377، وصحيح ابن ماجة (2790). [↑](#footnote-ref-105)
106. )) موطأ مالك ت الأعظمي (1/ ، 294،295، 264) [↑](#footnote-ref-106)
107. )) (حسن- السلسلة الصحيحة 2797) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ [↑](#footnote-ref-107)
108. )) (صحيح) [رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم] عن عبد الله بن بسر.وصححه الألباني في صحيح الجامع 7700، وتخريج الكلم الطيب 3، صحيح الترغيب 2/227. [↑](#footnote-ref-108)
109. )) رواه ابن ماجه -واللفظ له- وابن حبان في "صحيحه". وصححه الألباني وقال صحيح لغيره ـ ((التعليق الرغيب)) (2/ 227). [↑](#footnote-ref-109)
110. )) ويكفي كثيرا مراجعة كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية الكلم الطيب، والوابل الصيب عليه لتلميذه ابن قيم الجوزية عليهما سحائب الرحمة. [↑](#footnote-ref-110)
111. )) تفسير القرطبي (2/ 172) [↑](#footnote-ref-111)
112. )) مستفاد من تفسير الراغب الأصفهاني (1/ 344) بتصرف. [↑](#footnote-ref-112)
113. )) تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين للسمرقندي (ص: 448). والحديث الأخيرعَنْ عَمْرِو

     بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " خَصْلَتَانِ مَنْ كَانَتَا فِيهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شاكراً: مَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَاقْتَدَى بِهِ وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا فَضَّلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ كَتَبَهُ اللَّهُ شَاكِرًا صَابِرًا. وَمَنْ نَظَرَ فِي دِينِهِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِي دُنْيَاهُ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ فَأَسِفَ عَلَى مَا فَاتَهُ مِنْهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ شَاكِرًا وَلَا صَابِرًا ". رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. وقال حديث غريب أراه يضعفه.

     وقال الألباني في (السلسلة الضعيفة 633): لا أصل له بهذا اللفظ. ويغني عن هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: " انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم ". رواه مسلم والترمذي وصححه، وهو عند البخاري (10 / 270) نحوه. [↑](#footnote-ref-113)
114. )) راجع مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 232) فإن به كلاما رائعا. [↑](#footnote-ref-114)